بلاغة التخويف في كتاب الفتن من صحيح البخاري أنموذجاً

أمينة بنت سعود بن خيشان القرشي

الأستاذ المساعد بجامعة الباحة، كلية العلوم والآداب بالمندق، تخصص البلاغة والنقد

بلاغة التخويف في كتاب الفتن من صحيح البخاري أنموذجًا

أمينة بنت سعود بن خيشان القرشي
قسم البلاغة والنقد – كلية العلوم والآداب بالمندق– بجامعة الباحة
البريد الإلكتروني : aalqurashy@bu.edu.sa

الملخص

يسعى البحث إلى كشف مقومات البيان في الخطاب النبوي، من خلال تحليل جملة من الأحاديث النبوية التي برز فيها عنصر التخويف والترهيب وتحليلها من الوجهة البلاغية، والقيمة التربوية، واستنباط الأثر الدلالي، وبيان ودوره في البناء النفسي، فالتخويف منهج ديني تربوي؛ لأنه أداة تبليغ، وتوجيه.

الأهداف: معرفة المعاني والسياقات التي يُخوف الرسول ﷺ بها أمته، والمزايا التي أضافتها بلاغة التخويف على بلاغته ﷺ، الوظائف التي تحققها تلك البلاغة. ودراسة الأثر الذي تحدثه بلاغة التخويف؛ لما تحويه من لطائف المعاني الآخذة بأيدي العباد إلى مقام القرب من الله ترغيبًا وترهيبًا. وبيان الأسرار الجمالية والوظائف الدلالية لفنون البلاغة التي تلازم بلاغة التخويف.

المنهج: تحليلي بلاغي.

نتائج البحث: يُعدّ كتاب الفتن من أعظم أبواب الدين، فهو علامة على صدق نبوة محمد ﷺ، فقد حدّث ﷺ بأحداث وقعت، وأخبر بأخبار ستقع؛ ترهيبًا من خطر الافتتان، وترغيبًا في معالجة القلوب. وتوظيف (التخويف، والترهيب) لغايات، ومعانٍ تربوية عِظام، من أهمها: تبليغ التوحيد، وتعديل السلوكيات الضالة؛ رجاء نجاتهم من الفتن. إظهار الرحمة والشفقة، فتلك وسائل ردع وإعلام، فالقلب بالتخويف يكون أنشط للإقبال على الطاعات، والهمم تكون أعلى لترقى في الإيمان، والعزم يكون أشد في محاربة الفتن.الأمر باعتزال الفرق الضالة، ولزوم نهج الجماعة.

الكلمات المفتاحية : بلاغة – التخويف – كتاب– الفتن – صحيح البخاري.

The rhetorical of intimidation (The book of strife as a model of Sahih Al-Bukhari).

Amina bint Saud bin Khishan Al-Qurashi
Department of Rhetoric and Criticism - College of Science and Arts in Al-Mandaq - University of Al Baha
Email: aalqurashy@bu.edu.sa

Abstract :
The research seeks to detect the ingredients of eloquence and rhetoric in prophetic speech from Hudhayfa as a narrative by analyzing a group of hadiths in the intimidation context from: the diversity and multiplicity of strife, and the signs of doomsday. Then elicit the semantic impact of the rhetorical style of intimidation and its effective role in the psychological construction of the Muslim. Intimidation is a religious educational curriculum as a tool for informing, guiding, and preaching. Accordingly, the hadiths were studied from two sides: rhetorical point of view, educational value. **Research aims:** Knowledge of meanings and contexts that prophet Muhammed peace be a pone him intimidate his nation, the features of rhetorical of intimidation that added to his eloquence, and its achievement through the functions and purposes. Examine the effect of the rhetorical intimidation in prophetic statement that contains a softness meaning, both in willingness and intimidation that lead the servant's closeness to Allah. Explaining the aesthetic secrets and semantic functions for the rhetorical arts that support the context of the intimidation of rhetorical. **Research curriculum:** A rhetorical analysis method concerned with extracting the rhetorical properties and advantages. **Research results:** This book is one of the greatest chapters of our religion, as it is a sign of sincerity of prophecy, and the validity of religion for all circumstances. The prophet Muhammed peace be a pone him told of events that occurred and what will happen. In order to intimidate from the danger of strife, desire to heal hearts to direct them towards the right path. Employing the intimidation, and warning for educational purposes, goals, and meanings, the most important of which are: Notifying monotheism, changing the condition of those who are dissented, and modifying misguided behaviors in order to save them from strife. Showing mercy, compassion, and kindness these are means of deterrence and information. The heart by intimidation becomes more active for devoting to obedience's, intentions will be higher in order to rise in faith, and determination will be stronger for fighting strife. The commanding of retiring the misguided people, and the necessity of following group's approach.

Keywords: Eloquence - Intimidation - Book - Sedition - Sahih Al-Bukhari.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن الخوف من الله تعالى ذو طرائق متعددة، منها: الخوف من الفتن؛ لذا جُعل الخوف من الله رأس الحكمة، وجوهر العقيدة، وإنما يخشى الله ويخافه من علم به علمًا يدعو إلى العمل ومعرفة التكاليف(١)، والخوف يقتضي استعدادًا روحيًّا، ونفسيًّا، وعقليًّا في حياة المسلم الحق، يعينه على حسن الطاعة، والعودة إلى الرشاد إذا ما ظلّ وابتعد.

وللتخويف أهمية عُظمى تتمثل في معرفة "الجانب السلوكي التنفيذي بوجيهه: الإيجابي الماثل في إيجاد ما أمر به الله، والسلبي الماثل في الانتهاء عما نهى الله عنه، وحركة الحياة لا تستقيم إلا بإنزالها على ما قرره بيان الله إنزالًا يحقق جوهر التدين الحق"(٢)، والمقام في باب ذكر الفتن مقام يتطلب قدرًا عليًّا من (الترهيب، والتحذير، والتخويف، والإنذار)؛ من أجل إصلاح العقيدة، وإقامة الأخلاق، وتقويم السلوك، وإزالة الغفلة، ومحو الإعراض، وإعداد المسلم إعدادًا سليمًا يبلغ به رضا الله وجنته. فالمعنى في خطاب بيان الوحي (قرآنًا وسنة) نوعان باعتبار أداة التلقي، الأول: المعنى العقلي، والثاني: المعنى النفسي، وهما ممتزجان، لا تجد أحدهما متجردًا عن الآخر، بل يجريان معًا في نظم وأسلوب يقومان في سياقين ممتدين متلاحقين، **الأول**: سياق تكليف، وفيه يكون للمعنى العقلي ظهورٌ على المعنى النفسي، غير أن المعنى النفسي القائم في المعنى العقلي لا يغيب على ذي بصيرة. و**الآخر**: سياق تثقيف، يتمثل في إقبال النفس على ما يحمله المعنى العقلي من أمر ونهي إقبال محبة ناشئة من

(١) ينظر: التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لأبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي البغدادي الدمشقي، تحقيق: بشير محمد عيون، (دمشق، مكتبة المؤيد، دار البيان، ط٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م)، ص٢٢.

(٢) سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة دراسة منهجية تأويلية ناقدة، لمحمود توفيق محمد سعد، (دار الكتب المصرية، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م)، ص١٣.

رؤية الخير فيما رُغّبت فيه، ورؤية الشر فيما حُذّرت منه، وفي المقابل فإن ناتج رؤية الخير والشر لا يكون في السلوك ولا يتحقق إلا بمعرفة الله معرفة صادقة تحث على المحبة والمهابة معًا، فتدفع المحبة إلى الإقبال على الطاعة، وتدفع المهابة إلى الابتعاد عن المعصية(١)، وجماع الخير المطلق يكون في الامتثال لما ورد في الخطاب الديني من التخويف والترهيب، فهما تربية وتثقيف معًا ... وعلى هذا جاء اختيار دراسة (بلاغة التخويف في كتاب الفتن من صحيح البخاري أنموذجًا) عنوانًا لهذا البحث؛ وقد وقفت على جملة من الاحاديث النبوية التي برز فيها عنصر التخويف والترهيب، **وذلك لعدة أسباب تكمن في الآتي:**

- قلة الدراسات البلاغية التي تناولت البلاغة النبوية، وندرة الدراسات التي تناولت بلاغة التخويف في سياق أحاديث الفتن ... فتنوع المزايا البلاغية في هذا السياق يُعد مسوغًا لأن تكون موضوعًا قائمًا بذاته، وجديرًا بالدراسة والتحليل.
- يُعد أسلوب التخويف ضربًا من ضروب البيان، ذا أثر عليّ في إثراء المعاني الدلالية.
- الربط الوثيق بين حال العالم اليوم وما يموج فيه من فتن، وبين تحذيرات الرسول الكريم ﷺ وما تحمله من كشف وإيضاح لتلك الفتن التي وصفت – في الأحاديث– بفتن آخر الزمان، فقد تزايدت وتصاعدت مع تمكن الجهل بمبادئ الدين، وكل هذا يقتضي: تأكيد التخويف، وزيادة الترهيب، وإطالة التأنيب؛ من أجل: تنبيههم، ووعظهم، وردعهم، فأحوال المخاطبين قد استدعت الترهيب الشديد، والتحذير القوي، و"لقد بالغ صلى الله عليه وسلم في التشويق والتحذير؛ ليبالغوا في تجنب هذه الفتن، فيكونوا دائمًا عنها بمنأى ومعزل"(٢).

(١) ينظر: المرجع السابق ص٥٠، ٦٢.

(٢) التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه، بسيوني عبد الفتاح فيود، (مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م)، ص١١.

- جاء البحث رغبة في الوقوف على الخصائص والمزايا البلاغية التي اختص بها البيان النبوي، وعلى وجه الخصوص مرويات ابن اليمان، فإن له نفسًا تخشى الفتن، نفسًا تلح في سؤال رسول الله ﷺ ومراجعته، نفسًا دائمة الاستقصاء في البحث عن معرفة كل شيء، حتى عُدَّ عليه الرضوان مرجعًا موثوقًا في هذا الباب.
- بلاغة التخويف ترتكز على الجانب التثقيفي النفسي في المقام الأول، وهو مقام عليّ يُحقق القرب من الله، ويُنظم الحركة السلوكية للمسلم، ويعمل على ضبطها وتوجيهها الوجهة الصحيحة الفاعلة، "فالمعاني النفسية هي التي تثقف النفس، وتهذبها، وتروضها، وتعدها للقيام بما علمت، تستفزها إلى معالي الأمور ممارسة، وتأثيرًا في حركة الحياة من حولها"(١).

وأما أهداف البحث، فتتمركز حول الآتي:

- معرفة المعاني والسياقات التي يُخوف الرسول ﷺ بها أمته، والمزايا التي أضافتها بلاغة التخويف على بلاغته ﷺ، والغايات والوظائف التي تحققها تلك البلاغة.
- دراسة الأثر الذي تحدثه بلاغة التخويف في البيان النبوي؛ لما تحويه من لطائف المعاني الآخذة بأيدي العباد إلى مقام القرب من الله ترغيبًا وترهيبًا.
- بيان الأسرار الجمالية والوظائف الدلالية لفنون البلاغة التي تلازم بلاغة التخويف وتساندها في تجلية المعنى المقصود.

وتتمركز مشكلة البحث في عدة أمور رئيسية، وهي:

١. بيان أثر استحكام الهوى، وازدياد الفتن وتفاقمها آخر الزمان.
٢. بيان الرابطة القوية بين احاديث الفتن وبين ما يعيشه الواقع المعاصر.
٣. بيان أثر بلاغة التخويف في البناء النفسي للمسلم.
٤. توظيف الخصائص التركيبية والتصويرية في بناء أحاديث الفتن توظيفًا يُحقق للبيان النبوي بلاغته وفصاحته.

(١) ينظر: سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة، دراسة منهجية تأويلية ناقدة، ص٦٠٥.

وتتفرع عنها عدة تساؤلات جاءت على النحو الآتي:

س١: ما الأثر الذي تحدثه بلاغة التخويف في السياق النصي لأحاديث الفتن؟.

س٢: ما مدى اقتضاء السياق لبلاغة التخويف في أحاديث الفتن، وما صلتها بالواقع المعاصر؟.

س٣: هل لبلاغة التخويف أثر في تحقيق الإفهام، والإقناع، والتأثير؟.

س٤: ما مدى توظيف الخصائص التركيبية التصويرية في أحاديث الفتن، وكيف يمكن استثمار تحقق هذا التوظيف في دراسة مكونات الصور من جهة بنائها التركيبي، ومن جهة علاقتها بالسياق، وما أثر ذلك في المعنى والنفس؟.

الدراسات السابقة: جاءت الدراسات السابقة لهذا الموضوع على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: دراسات تختص بدراسة الخصائص والمزايا البلاغية في البيان النبوي، واختيار مجموعة متفرقة متنوعة من الأحاديث النبوية، ثم الاستشهاد بها على الأساليب البلاغية من معانٍ، وبيان، وبديع، **ومن أبرز هذه الدراسات ما يأتي:**

الدراسة الأولى: التصوير الفني في الحديث النبوي، لمحمد لطفي الصباغ، (المكتب الإسلامي، (ط١)، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م)، والكتاب يضم ثلاثة أبواب، الأول بعنوان: الصور الحسية والمعنوية في عالم الغيب، والثاني بعنوان: الصور الحسية والمعنوية في عالم الشهادة، والثالث بعنوان: الصور الحسية والمعنوية في وسائل التصوير وعلاقاته. وقد درس الصباغ الصور الفنية في الحديث النبوي دراسة مفصلة، معتمدًا في دراستها منهجَ التحليلي البلاغي؛ لاستخلاص المزايا والأسرار البلاغية.

الدراسة الثانية: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، لعز الدين علي السيد، (مصر، جامعة الأزهر، ١٣٩٢هـ-١٩٧٣م)، وهي دراسة علمية نظرية تطبيقية، احتوت على إطار نظري عام يتمثل في عرض المصطلحات

البلاغية فيما يخص علم المعاني بدرجة كبيرة، وبعض فنون علم البيان كالتشبيه والاستعارة. كما عرض المؤلف لبعض الأحاديث النبوية في الجانب التطبيقي؛ لاستخلاص الصور البلاغية بمنهج التحليل البلاغي.

الدراسة الثالثة: شرح أحاديث من صحيح البخاري، دراسة في سمت الكلام الأول، لمحمد محمد أبو موسى، (دار الكتب المصرية، مكتبة وهبة، (ط٢)، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م)، وتشتمل هذه الدراسة على اختيار مجموعة من الأحاديث النبوية، ودراستها بمنهج التحليل البلاغي؛ للوقوف على الخصائص والمزايا البلاغية التي تفرد بها البيان النبوي في فصاحته، وبلاغته، وحسن أسلوبه، وقوة معانيه.

القسم الثاني: دراسات تختص بدراسة فنٍّ بلاغي من فنون البلاغة العربية، ومن ثَمَّ تطبيقه على أحاديث محددة من الصحيحين، ومن أبرز هذا النوع من الدراسات على سبيل التمثيل:

- دراسة بعنوان: أساليب القصر في أحاديث الصحيحين ودلالاتها البلاغية، لعامر عبد الله الثبيتي، (الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة).
- دراسة بعنوان: أسلوب الاستفهام في الصحيحين، لسليت داود كبلي، (الجامعة الإسلامية، رسالة ماجستير).
- دراسة بعنوان: التشبيه التمثيلي في الصحيحين، لفايزة سالم صالح، (جامعة أم القرى، رسالة ماجستير)، وغيرها.

القسم الثالث: الدراسات الخاصة بأسلوب الترهيب والتخويف، التي من أهمها:

الدراسة الأول: التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لأبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن رجب الدمشقي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشير محمد عيون، (مكتبة المؤيد، دار البيان، دمشق، (ط٢)، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م)، جاءت في ثلاثين بابًا، من أبرزها وأهمها: **في الخوف من النار وأحوال الخائفين، في ذكر الإنذار بالنار والتحذير منها، في ذكر تخويف جميع أصناف الخلق بالنار وخوفهم منها، في القدر الواجب من الخوف ...**

وطريقة المؤلف أنه يجمع بعضًا من الأحاديث والآيات المتعلقة بالتخويف من النار، مع ذكر بعضٍ من أقوال السلف. وهي أقرب إلى جمع الآيات والأحاديث دون (دون تحليل).

الدراسة الثانية: أحاديث الترغيب والترهيب في البيان النبوي وأثرها في قراءة القرآن الكريم وحفظه وتدبره، دراسة بلاغية نقدية، لهدى أحمد الذماري، (حولية كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، العدد الثالث والثلاثون)، تناولت هذه الدراسة جملة من الأحاديث النبوية المرغبة في قراءة القرآن وحفظه وتدارسه، والأحاديث التي نهت عن تركه والإعراض عنه، وضمت عدة محاور، الأول بعنوان: مفهوم الترغيب والترهيب ومكانتهما في البيان النبوي الشريف، المحور الثاني بعنوان: أساليب الترغيب الواردة في أحاديث الإقبال على القرآن الكريم وحفظه، المحور الثالث بعنوان: أساليب الترهيب الواردة في أحاديث البعد عن القرآن والانشغال عنه.

الدراسة الثالثة: الخوف من الله وأحوال أهله، لمجدي فتحي السيد، تقديم: نبيل غنايم، (البشير – القاهرة)، وقد عرض في هذا الكتاب جملة من أعمال السلف الصالح رضوان الله عليهم في التقرب إلى الله ﷻ، وضم الكتاب عدة عناوين، منها: الخوف بين التعريف اللغوي والمدلول الشرعي، فضيلة منزلة الخوف، آيات الخوف، أما الأبواب فعلى النحو الآتي: الباب الأول بعنوان: الترغيب في الخوف في القرآن والسنة، والباب الثاني بعنوان: في ترغيب السلف في الخوف من الله والبكاء من خشيته، والباب الثالث بعنوان: أحوال الصحابة والخوف من الله، والباب الرابع بعنوان: أحوال التابعين والخوف من الله، والباب الخامس بعنوان: النساء الصالحات والخوف من الله، والباب السادس بعنوان: في علامات الخوف من الله. وهذه الدراسة أقرب إلى جمع الآيات والأحاديث دون تحليل.

الدراسة الرابعة: من الخصائص البلاغية في حديث الرسول ﷺ عن الفتن، دراسة في صحيح مسلم، لصبحي إبراهيم عفيفي المليجي، وجاءت الدراسة على النحو الآتي: المبحث الأول بعنوان: الخصائص البلاغية في الدعوة إلى الاستعداد للفتن، المبحث الثاني بعنوان: الخصائص البلاغية في التعريف بأسباب الفتن، والتحذير من إثارتها أو المشاركة فيها، والمبحث الثالث بعنوان: الخصائص البلاغية في التوجيه إلى ما يجب فعله عند وقع الفتن. واعتمد الباحث على المنهج البلاغي في تحليل الأحاديث.

خطة البحث:

مقدمة: تحتوي على: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، ومشكلته، وتساؤلاته، والدراسات السابقة فيه، وخطته، ومنهجه.

التمهيد: وفيه:

أولًا: أثر التخويف في البناء النفسي للمسلم.

ثانيًا: بلاغة التخويف في البيان النبوي.

المبحث الأول بعنوان: التخويف من تنوع الفتن وتعددها: الوجهة البلاغية، والقيمة التربوية.

المبحث الثاني بعنوان: التخويف بعلامات الساعة: الوجهة البلاغية، والقيمة التربوية.

منهج البحث: منهج التحليل البلاغي القائم على استخلاص الخصائص والمزايا البلاغية، وهذا المنهج يهتم في المقام الأول بالوقوف عند الجزئيات البلاغة وتحليليها بما يتوافق مع السياق وفق ما ورد عند البلاغيين.

التمهيد

إن الأزمة العُظمى التي يعانيها المسلمون في كل مكان وزمان تتمثل في ضعف الإرادة، وموت الضمير، وانهزام الأنفس تجاه تعدد منافذ الفتن وتنوعها، فإن البلاء والامتحان يحصل معه افتتان عظيم يصرف القلوب عن الآخرة، وقد برع زبانية الشر وأنصار الشيطان في زيادة الفتن وتفشيها وانتشارها بدرجة مخيفة مفزعة مؤلمة؛ وعليه جاء التحذير والتخويف والإنذار من فتن الشهوات، وفتن الشبهات، وفتن الغي، وفتن المعاصي، وفتن الظلم، وفتن الجهل؛ لما تُوجبه من فساد في القصد، وفساد في الاعتقاد، وعلى المرء أن يُدرك قيمة الابتعاد والتخلي، ففيهما ترجمة حيّة لقوة رسوخ الإيمان، وأن يعلم أن محاسبة النفس وسيلة من أقدس وسائل تقويمها، وترويضها، وحملها على الجادة النبوية السليمة، فالمحاسبة خطوة تحول بين الإنسان، والغفلة، والانحراف، والفتن، وهي الضمان الواقي للمرء من أن يتسلط عليه ضعفه، أو تستعبده الشهوات الآثمة، والملذات المحرمة(١).

أولاً: أثر التخويف في البناء النفسي للمسلم

إن لكل أسلوب أثرًا بالغ الأهمية في نفوس المتأملين والعاملين به، يدفعهم نحو التنصر تارة، والعمل أخرى، ومن تلك الأساليب أسلوب التخويف، وما يحتويه من قيم إيمانية تربوية عظيمة، فهو ذو سلطان قوي على العقل والنفس معًا، يلح على العقول أن تتحرك وتتأمل وتسعى، ويصقل النفوس ويوقظها؛ لتصبح ذواتًا جديدة مهيئة لاستقبال الحق، وتلك أرفع مقامات التصعيد الإيماني؛ لما يحققه من تأثير في نفس سامعه وقارئه، فينقله من حال الغفلة والفساد إلى حال الوعي والإدراك، والغاية الأسمى تنمية الورع الذي يُميت الشهوات، ويستميل المتلقي لقبول الصواب. وبهذا يُعد التخويف مطلبًا مهمًّا من مطالب الدعوة الإسلامية، فالنفوس بعادتها تُقبل تارة، وتُدبر أخرى؛

(١) ينظر: الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كتبه، لمحمد لطفي الصباغ، (المكتب الإسلامي، ط٦، ١٤١١هـ-١٩٩٠م)، ص٦٥، ٩٦ بتصرف يسير.

لذا جمع الشرع الإلهي بين خاصيتي (الترهيب والترغيب)؛ لإثارة العواطف أولًا، وتوجيه الانفعالات ثانيًا، وضبط السلوكيات ثالثًا، ولزوم النهج السليم رابعًا.

والترهيب أسلوب وقائي، يقي النفوس من العلل المفسدة للإيمان، ويترك فيها أثرين عظيمين، **الأول:** يكون حال تلقي هذا الأسلوب، فإن الإعلام بالعقوبة يترك في النفس أثرًا لا يزال يتردد فيها لشدة الخوف، و**الثاني:** يكون حال تذكر مآل من وقعوا في الفتن والمعاصي، فالشدة أداة مانعة من الوقوع في المفسدات، وتلك الشدة تُحدث في النفوس (تحولًا واتزانًا)، تجعل العاقل يُدرك، ويعمل، ويتحمل؛ حتى لا يقع في الندم عند ملاقاة العقاب. والترهيب أسلوب أمثل لمحاربة الفتن؛ لما يحتويه من إرشاد وتوجيه، وتعليم وتثقيف، وتربية وعلاج، ولا شك فالنفوس السوية لديها القدرة على استقبال هذا اللون من التخويف؛ لأنه تخويف (ردع، ومنع، وتأثير، وتحفيز)، فكلما علا الكلام وارتفع في ميزان البلاغة قوي تأثيره في النفوس، "وإذا علا الكلام في نفسه، كان له من الوقع في القلوب، والتمكن في النفوس، ما يذهل ويبهج، ويقلق ويؤنس، ويطمع ويؤيس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب، ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجودًا، ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيدًا، وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة"(١).

ومقام الترهيب من أعظم مقامات العبادة؛ إذ إنه يشتمل على اليقظة ومحاسبة النفس، والنفس لا تقلع عن غيها وفسادها إلا بأحد أمرين: "خوف مزعج محرق، أو شوق مبهج مقلق"(٢)، فهما الدواء لذهاب الشهوات، ولا ريب، فمقام الترهيب مقام بيان وإصلاح، تصبح النفوس فيه على يقين، الحجج لها داحضة، والباطل منها زاهق، وهذه حجة من حجج الله على خلقه التي

(١) إعجاز القرآن الكريم، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، (مصر، دار المعارف، ط٥، ١٩٩٧م)، ص٢٧٧.

(٢) ينظر: التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، ص١٠.

لا يعذب بها أحدًا ولا يضله إلا بعد إعلامه، وتعريفه، وتثقيفه، فإن علامة الخوف الحقيقي تتمثل في القرب من الله قربًا يُمكن المرء من اجتباب ما نهى الله ورسوله ﷺ عنه قولًا، وعملًا، واعتقادًا، والسعي إلى امتثال ما أوجبا قولًا، وعملًا، واعتقادًا[١]، والبيان النبوي ينطلق من نور القرآن ومنهجه في التربية الإيمانية الصحيحة، وبما "أنزل الله عليه من آي الكتاب المبين، فكان تكوينه خير تكوين، وتثقيفه أول تثقيف، فصدرت منه آيات بينات، وحكم خالدات، وعبارات في الأدب غاية، وفي البدع نهاية، كان لها شأو بعيد، وأثر حميد، في تربية النفوس وإصلاحها، وتقويم الأخلاق وتهذيبها"[٢].

ولقد وظّف الرسول الكريم ﷺ أسلوب التخويف في بيانه؛ ليكون طريقًا إلى معرفة الله، وتحقق الإجابة، والإقبال؛ ولهذا عُدّا (التخويف والترهيب) دوافع محركة إلى التوحيد، وبواعث موجبة لليقظة، وحصونًا مانعة من الميل، ومن أبلغ ما قيل في هذا الباب "قول وهب بن منبه: ما عبد الله بمثل الخوف. وقول أبي سليمان الداراني: أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ﷻ، وكل قلب ليس فيه خوف الله فهو قلب خرب"[٣]. والخوف من الله من أهم الأساليب المُجدية في محاربة الفتن، فهو سلوك تربوي يقود البشرية نحو الأمن والأمان، فينير القلوب بنور التنبيه، فتستقيم بذلك الخوف، فتقبل على الله إقبال محبة، وخضوع، وفزع، وهذا مستلزمٌ لكمال الرحمة واللطف بالخلق[٤]؛ إذ فُرض الترهيب والتخويف وجعلا طريقين موصلين إلى الهداية، وسلاحين للوقاية، إذا تأمل المرء سياقاته سَهُل عليه محاربة النفس، والشيطان، والهوى. فلله ما أنفع هذا الأسلوب!، وما أعظم قدره وخطره!، وما أشده إعانته على السلوك السوي!،

(١) ينظر: المرجع السابق، ص١٥ بتصرف.

(٢) الأدب النبوي، لمحمد عبد العزيز علي الشاذلي الخولي، (بيروت، دار المعرفة، ط٤، ١٤٢٣هـ)، ص٧.

(٣) ينظر: التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، ص٩.

(٤) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لأبي عبد الله محمد بن القيم، تحقيق: عبد العزيز ناصر الجليل، (القسطاوي، ط١، ١٤٣٩هـ)، ص٥٤، ١٥٤ بتصرف يسير.

به تتحقق منزلة عليّة من منازل العبودية؛ حيث انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغفلة[١]، "فبحسب كمال انتباه المرء ويقظته يكون عزمه، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده ... فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأي عينٍ، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل"[٢].

ومن أعظم نعم هذا الباب أن أسلوب التخويف ذو أثر حميد في تأدب الجوارح، واستكانة القلوب، فلزامًا على كل واحد أن يُعظم مقام المحاسبة، واليقظة، والتنبيه، وتلك حماية ربانية، نبوية، مقدسة، جاءت لتهذب البشرية من الفساد، وتخلص الدين من الفتن. وأن يحرص على توظيف المدركات العقلية والذهنية في وجوه الطاعات، فالذهن البشري في أصله مستعد للقبول والإجابة أمرًا ونهيًا، ومهيئ للتغيير نحو الإيجاب، وهذا ما يُحدثه أسلوب التخويف في البناء النفسي للمسلم؛ إذ يُؤصل في النفس (التغيير والتأثير) معًا، تغييرًا يعود بها إلى معرفة الهدف الذي خلقت من أجله، وهو التوحيد، وتأثيرًا يقوي فيها اليقظة والانتباه حتى يحصل المقصود منه، وهو: إنزاع السمع للكلام، والقلب للتأمل في المعاني المرادة من وراء كل خطاب[٣]. فيولد التغيير في داخلها طاقات إيمانية تسعى إلى تغيير الأفكار، والسلوكيات، والمبادئ، والمعتقدات الفاسدة، وإعادة النفس إلى فطرتها السوية، ويولد –أيضًا– شعورًا نفسيًّا يدفع القلوب لتقبل على التكليف إقبال محبة، واستشراف، وتعلق، ومن ثَمَّ يتحقق الإتقان في الأداء[٤]. والغالب على أسلوب التخويف أنه أسلوب يُسهم في نماء الجانب النفسي في الإنسان؛ لأنه نتاج معان تستقبلها النفس، معانٍ ذات أثر عال في تقويم السلوك، وتلك معانٍ تثقيفية تمنح المعاني العقلية التي تتلقى بالعقل –معاني التكليف العقدي والسلوكي أمرًا ونهيًا– فاعليتها ووجودها في

(١) ينظر: المرجع السابق، ص١٣٧ بتصرف يسير.
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص١٣٨.
(٣) ينظر: المرجع السابق، ص٨ بتصرف.
(٤) سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة، دراسة منهجية تأويلية ناقدة، ص٦٢٨.

حياة الناس، وإلا بقيت هذه المعاني وجودًا بيانيًّا وفهميًّا، لا حضور لها في الواقع المعايش في حياة الأمة(١).

ومن الآثار الإيجابية للخوف في البناء النفسي للمسلم أنه يكون حارسًا على نفسه عند حدوث الفتن والمعاصي، وهذا مما يؤدي إلى استمرارية الاجتهاد في تعديل السلوكيات الخاطئة تجاه الدين، فالترهيب خوف داخلي، يُخاطب العقل ويحركه نحو الله، ويبعث في القلب (كسرة، وذلة، وخضوع)، ويدفع بالمرء إلى الإقبال على مصدر الخوف، فوراء كل تخويف وترهيب قيم عليا تُحفز المدركات نحو العمل بطريقة إيجابية، "ولا ريب، فالخوف الشديد من العقوبة العظيمة خوف محمود يصح به الإيمان، فيوجب انصداع القلب وانخلاعه"(٢).

ثانيًا: بلاغة التخويف في البيان النبوي

وردت مادة (خ، و، ف) في كتب المعاجم العربية تدل على الذعر، فالخاء والواو والفاء أصل واحد، يدل على الذعر والفزع، يقال: خافه، يخافه، خوفًا، وخيفة، ومخافة، ويقال أيضًا: خاوفني فلان فخفته، أي: كنت أشد خوفًا منه(٣). والخوف: ضد الأمن، وقيل هو: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويستعمل هذا في الأمور الدنيوية والأخروية، وإلى جانب هذا فإن للخوف تعريفات عديدة، من أبرزها: أن الخوف حالة تعتري الإنسان عند الانقباض من شر متوقع(٤)، وهو: "غمٌّ يحصل بسبب مكروه متوقع في

(١) ينظر: المرجع السابق، ص٢٥، ٢٦ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٤.

(٣) ينظر: لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين بن منظور، (بيروت – لبنان، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م)، مادة (خ، و، ف) ٩٩/٩؛ مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، ٢٣٠/٢.

(٤) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، (بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ)، ٤٥٣/١.

المستقبل"[1]، وهذا (الاضطراب، والغم، والفزع) نتيجة تألم القلب واحتراقه من العقاب المتوقع؛ بسبب الخوض في الفتن والمحرمات.

ولا شك، فالمراد بالخوف في هذا السياق الخوف المحمود الذي أشار الله إليه في محكم التنزيل قائلًا:﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[2] [الرحمن: ٤٦]، خوف يعصم المرء من اقتراف كل ما يغضب الله من ذنوب، وفتن، "والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف على دقائق المكروهات، والتبسط في فصول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا، أو موتًا، أوهمًّا لازمًا؛ بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله لم يكن ذلك محمودًا"[3]. ومن هنا؛ فإن كل ترهيب أو تخويف في السنة النبوية يترتب عليه دوافع حميدة، وسلوكيات صائبة، وثمار طيبة، وما ذلك إلا لتقوية الإيمان أولًا، وإزالة الغفلة ثانيًا، والالتزام بالطاعات ثالثًا، واجتناب المعاصي رابعًا، والمحاسبة واليقظة خامسًا، وهذه الخمسة مما يعين على قوة التأمل، والتفكر، والتذكير بأنواع العذاب عند مشاهدة الفتن، والتصديق الجازم بكل ما أخبر عنه الله ورسوله ﷺ من أحوال النار.

وقد جاء البيان النبوي لإقناع العقل، وإرضاء النفس بأساليب مؤثرة، تدعو إلى الاعتدال في كل الأمور، فهو بيان كلما زدته فكرًا زادك معنى، بيان

(١) مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي، (بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ)، ٥٧٩/٢٤.

(٢) ومن أبرز ما قيل في تفسير هذه الآية: أن هذا المقام لمن ركب طاعة الله وترك معصيته، فمن خاف هذا المقام عمل له ودنا له، فجنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي. ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م)، ٥٦/٢٣؛ مفاتيح الغيب، ٣٧٠/٢٩؛ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، (القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م)، ١٨٠/١٩.

(٣) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، ص٢٧.

يتميز بنمط متفرد من الفصاحة، وطبقة عالية من البلاغة[١]، أشاد أهل العلم ببيانها، وتفصيل القول فيها، من هؤلاء العلماء: الجاحظ، والخطابي، والرافعي، ومن أدق أقوالهم في وصف فصاحته ﷺ قول الجاحظ: "هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: (قل يا محمد: وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)، فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه صلة الله عليه وسلم كثيرًا"[٢]، وفي السياق نفسه يقول الرافعي واصفًا حسن الألفاظ والمعاني في بيانه ﷺ: فهو من جهة الصياغة اللفظية "مسدد اللفظ، مُحكم الوضع، جزل التركيب، متناسِب الأجزاء في تأليف الكلمات، فخم الجملة، ثم لا ترى فيه حرفًا مضطربًا؛ ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه؛ ولا

(١) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي، لمحمد الصباغ، (المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م)، ص٢٣.

(٢) البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة، مكتبة الخانجي)، ص١٣.

كلمة غيرُها أتم منها أداء للمعنى ... –ومن جهة الصناعة المعنوية– حسن المعرِض، بين الجملة، واضحَ التفضيل، ظاهِرَ الحدود، جيدَ الرصفِ، متمكن المعنى"[١].

وقد اتضح من نصي (الجاحظ والرافعي) جملة من سمات الأسلوب النبوي وخصائصه؛ حيث الجمع بين مهابة المعاني وسلاسة الألفاظ، فتمثل في بيانه –على جهة العموم– حسن بناء الكلام، وجمال سبكه، وسمو غاياته؛ من أجل مراعاة مقتضى الحال في كل مقام وسياق. والذي يدعو إليه البحث مقام التحذير والترهيب الذي سلكه الرسول ﷺ في تبليغ دعوة ربه، وقد اتضح في هذا المقام البلاغة والبيان، والقدرة على إبداع الصور، وابتداع التراكيب؛ للوصول إلى قلب السامع –تنبيهًا وتحذيرًا–[٢].

فالنصوص السابقة حوت كثيرًا من الأصول والضوابط البلاغية التي تميز بها كلامه عليه الصلاة والسلام، فهي نتائج قاطعة على سداد لغته، وصواب معانيه عليه الصلاة والسلام، "فالمعاني اتسمت بالغنى في الأفكار، والعمق، والجدة، والإحكام، والانسجام، والتسلسل، والغوص في أغوار النفس الإنسانية، وملامسة أبعاد هذه النفس؛ مما مكن لهذه المعاني أن تكون خالدة على وجه الدهر"[٣]، فكان رأسًا في الفصاحة، ومجمعًا في البلاغة، وذروة في البيان، مراعيًا حال أمته في كل مقام وحال[٤]، وفي هذا ما يرشد إلى أن النظم الجيد يمتاز بخصائص في صياغته، وأوضاع في تراكيبه؛ مما يجعل الخصائص والتراكيب تدل على معانٍ يكون بها الكلام وافيًا مطابقًا لما يتطلبه سياق الترهيب شفقة ورحمة بحال السامعين؛ لغرض الرجوع والإقبال، فقد استيقظ عليه الصلاة والسلام ليلة فزعًا يقول: «**سبحان الله، ماذا أنزل الله من**

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق عبد الرزاق الرافعي، (بيروت – لبنان، دار الكتاب العربي، ط٨، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م)، ص٢٢١.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص٣٥.

(٣) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي، ص٢٣.

(٤) ينظر: السابق.

الخزائن، وماذا أنزل من الفتن، مَنْ يوقظ صواحب الحجرات لكي يصلن، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»[١]، و"معاني الحديث تغوص في أغوار النفس الإنسانية، وتلامس أعماقها وأبعادها، وتؤثر فيها تأثيرًا عظيمًا، وإن حديثًا واحدًا لو تأمله الإنسان تأملًا عميقًا واستوعبه لكان كافيًا لبدء الانطلاق في تغيير حياته تغييرًا جذريًّا أصيلًا؛ لأن معانيه كانت تهز الوجدان هزًّا عنيفًا، وتؤثر فيه، وتتغلغل في أعماق نفسه"[٢]. والملاحظ أن لقوة العبارات وعمق المعاني في بيانه عليه الصلاة والسلام أثرًا بالغًا في تعديل السلوك؛ إذ أخذ عليه الصلاة والسلام يوجه البشرية عامة بهذا الأسلوب، ومما هو معلم أن القلب الندي بالإيمان متصل بالله يعمل بموجب الترهيب؛ لأن الترهيب يورث الخوف من الوقوع في المعاصي، والحرص على الابتعاد عنها، وهذا يترك أثرًا عظيمًا في النفوس، ويدعو للمتأمل، وإلى معرفة الحقائق الإلهية، وهذا محمود مرغب فيه؛ لأنه يؤكد ويؤيد معنى العبادة الحقة التي من أجلها أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام[٣].

(١) صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، (مركز البحوث، دار التأصيل)، كتاب الفتن، باب (لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه)، رقم الحديث (٧٠٦٩) ٩/ ١٣٩.

(٢) التصوير الفني في الحديث النبوي، ص٢٣.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص٣٣ بتصرف.

المبحث الأول:

التخويف من تنوع الفتن وتعددها: الوجهة البلاغية، والقيمة التربوية

إن من أجل وسائل الدعوة إلى الله اعتماد أسلوب الترهيب كوسيلة إرشادية تعليمية، بها تُقرر الأدلة الشرعية والعقلية؛ من أجل الحرص على سلامة الدين أولًا، والخوف من العقوبة ثانيًا، والدعوة إلى الاجتهاد في العبادة ثالثًا، وكل هذه الأسس من كماليات الدين الحق، الذي قال عنه تعالى محكم التنزيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فاتضح أن الترهيب يقتضي الحرص على نشر الموعظة الحسنة؛ لكونها رحمة للعالمين، فيأتي الترهيب في السياقات النبوية ممزوجًا بما يُلين القلوب ويرققها؛ فيحصل الانتفاع من الوعظ، والتنبيه، والإقناع، ولا شك، فهذا باب من أبواب الدعوة إلى الله وظّفه الرسول عليه الصلاة والسلام في بيانه؛ حتى لا تركن أمته إلى ما لا ينبغي من إحداث الفتن على اختلاف أنواعها وألوانها. وسيضم هذا المبحث جملة من الاحاديث النبوية:

يقول البخاري **فحدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، وحدثنا إسماعيل، حدثني أخي، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن أبي عتيق، عن ابن شهاب، عن هند بنت الحارث الفراسية، أن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعًا يقول: «سبحان الله، ماذا أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن، مَنْ يوقظ صواحب الحجرات -يريد أزواجه- لكي يصلين، رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»**[1].

فالحديث غاية في التحذير من فتنة الغنى، والإسراف في الملبس، وقد جاء التحذير ممزوجًا بمعاني الوعظ والتنبيه، في تراكيب ذات دلالات معبرة، تصور الحال والمآل الذي يكون عليه العباد حال الغفلة والإعراض، ومن تلك

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب (لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه)، رقم الحديث (٧٠٦٩)، ٩/ ١٣٩.

الدلائل ما يرشد إليه السياق الخارجي للحديث المروي عن أم سلمة رضي الله عنها، حيث شكّل السياق الخارجي أداة فاعلة في تصوير شدة الأمر وفظاعته، فإن نزول الأمر المهول، وشدة وقعه في نفس الرسول عليه الصلاة السلام يستوجب هذا القدر من الإنذار؛ وما ذلك إلا خوفًا على أمته من الهلاك، فقال متعجبًا لما علمه من تغير الأزمان وفساد الأحوال: (سبحان الله!)، إظهارٌ لمعاني المفاجأة، والغرابة، والدهشة؛ لأن كلمة (سبحان الله) في مثل هذا المقام تقال عند رؤية الأمر الغريب المفزع المخيف، ولفظ (سبحان الله) إذا تقدم الخبر استلزما معنى استعظام ما يذكر بعده استلزامًا بلاغيًا[١].

ومن دقة تسلسل المعاني وترابطها في البناء النبوي: الاستفهام بـ(ما)؛ لتضمنها معنى التعجب تارة، والتعظيم أخرى؛ ترغيبًا في ملازمة الطاعات، ودلالة على كثرة خزائن الخير المقدرة في تلك الليلة، وترهيبًا للتخلي عن الفتن، ودلالة على كثرتها، "فالفتن مقرونة بالخزائن التي فتحت"[٢]، والخزائن سبب في إشعال الفتن وتضرمها، فقال في الأولى: (خزائن)، وفي الثانية: (فتن) بصيغ الجمع؛ دلالة على السعة والكثرة في كلٍّ، ثم عبّر عن (الإعلام) بالإنزال في (ماذا أنزل)؛ دلالة على عِظم الأمر المنزل ومدى أهميته، وهو علمه بالشر الذي ستقع فيه الأمة من بعده.

ومن علائق الربط بين أجزاء الحديث أنه قال في الأولى: (ماذا أنزل الله من الخزائن)، وفي الثانية: (ماذا أنزل من الفتن)، والأقرب أن المراد بـ(الخزائن): الرحمة، أي: ماذا قدر من الرحمة[٣]، فعبر عنها بالخزائن؛ لعزتها

(١) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، عز الدين علي السيد، (١٣٩٢هـ ١٩٧٣م)،ص٣٧٠. شرح أحاديث من صحيح البخاري، دراسة في سمت الكلام الأول، لمحمد محمد أبو موسى، (مصر – القاهرة، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م)، ص٣٧٤.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (المكتبة السلفية)، ٢٠/١٣.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)،٢٢٣/٢٢.

ونفاستها[1]، وجاءت على سبيل المجاز المرسل؛إذ ذكر المحل وأراد الحال فيه لعلاقة المحلية، وفي الجملة الثانية أراد (العذاب)، وعبر عنه بالفتن على سبيل المجاز المرسل؛ إذ ذكر السبب وأراد المسبب لعلاقة السببية، فالفتن سبب رئيس لإحلال العذاب.

أما قوله: (مَنْ يوقظ صواحب الحجرات)، فقد مثّل الاستفهام لفتة تربوية بارعة منه ﷺ؛ لأنه كشف عن معنى نفيس اقتضاه السياق يكمن في أنه ينبغي على العاقل أن يدرك حقيقة الداء لمعرفة الدواء، فمحاربة الفتن لا تتحقق إلا بالقرب من الله والعمل في رضاه، والإيقاظ هنا من أجل العبادة، وخص صلاة الليل –النوافل– لما لها من منافع جلية؛ إذ إنها تحارب الفتن التي تسلب الإيمان، وفيها تنزيه لله من الشرك، "فينبغي لصواحب الحجرات أن لا يتغافلن عن العبادة، ويعتمدن على كونهن زواج الرسول عليه الصلاة والسلام ... وجاء التخصص بهن دون غيرهن؛ لكونهن حاضرات حينئذ"[2]، فأرشد عليه الصلاة والسلام إلى ما يمكن أن يُدفع به الفتن، وهي الصلاة، ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فتحقق الإعلام بما في الصلاة من وقاية وتكفير للفتن، "وفي الحديث الندب إلى الدعاء والتضرع عند نزول الفتنة، ولا سيما في الليل؛ لرجاء وقت الإجابة؛ لتكشف، أو يسلم الداعي ومن دعا له"[3].

ثم جاء التعبير بـ(رُبّ) مرادًا بها تأكيد معنى الكثرة، فكم من (كاسية في الدنيا عارية في الآخرة)، "وهذا من النساء كثير"[4]، وجاء في تأويل معنى

(١) ينظر: شرح الطبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ(الكاشف عن حقائق السنن)، لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (مكة، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م)،١٢٣/٤.

(٢) فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٢٣/١٣.

(٣) المرجع السابق: ٢٣/١٣.

(٤) السابق.

(كاسية وعارية) عدة أوجه[١]، ومن أكثرها تناسبًا مع المعنى في هذا السياق – سياق التحذير والترهيب– أنها كاسية في الدنيا بالثياب؛ لكثرة البذخ والغنى المفرط، عارية في الأخرة من الثواب؛ لعدم الإقبال على مرضاة الله. أو أنها كاسية في الدنيا بالثياب الشفافة التي لا تستر عورة، عارية في الآخرة من الثواب؛ جزاء عُريها في الدنيا. أو أنها كاسية من نعم الله دون الشكر عليها، عارية من ثواب شكرها[٢].

والقيمة التربوية تتجلى في إظهار نعم الله على أهل هذا الزمان –من التخويف والتحذير–؛ ليعرفوا طرق الوقاية ويعملوا بها، فإن ما يقتضيه العقل، وما يرتضيه الفكر، الأخذ بمنهج الرسول عليه الصلاة والسلام في محاربة الفتن، إذ أوضح الدواء لكل داء يشوب الدين ويفسده، وأعلم البشرية أن أسباب الضلال والغي تتمثل في إحداث البدع في الدين، والفجور في الدنيا، وتلك أحداث فاسدة تنغمس فيها البشرية؛ لما يُحيطها من ظلم النفس، وجهالة العقل، "ولو تأملنا معاني الحديث لأدرك العبد أنها قيلت لتعالج مشكلاته، وتقوم الاعوجاج، وتنير جوانب الطريق في درب الحياة الطويل"[٣].

وقيمة التحذير والترهيب التربوية تتمثل –أيضًا– في مقاومة النفس ودفعها نحو الأمثل في سلم العقيدة، والاقتداء بسيد البشرية في تعوذه من شر الفتن ما ظهر منها وما بظن، والحقيقة أن هذه الفتن لا تدع أحدًا من الغافلين المعرضين إلا لطمته؛ لضعف إيمانهم، وشدة غلبتها، وسرعة انتشارها[٤]. "فأصول المعاصي كلها –كبارها، وصغارها– ثلاثة: تعلق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، وطاعة القوة الشهوانية، وتلك هي: الشرك، والظلم،

(١) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢٢٣/٢٢.

(٢) ينظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال، أبي الحسن علي بن خلف، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، (السعودية، الرياض، مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م)، ١٩٠/١.

(٣) ينظر: الحديث النبوي، ص٥٥.

(٤) ينظر: شرح كتاب الفتن من صحيح البخاري، الشارح: عبد الكريم عبد الله عبد الرحمن الخضير، ص٥٢. بتصرف

والفواحش، فغاية التعلق بغير الله شرك، وغاية القوة الغضبية قتل، وغاية القوة الشهوانية زنى، وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض، ولا يصرفها ويُذهبها إلا التوحيد الخالص ... فكلما كان القلب أضعف توحيدًا كان أعظم شركًا وأكثر"[١]

ومن جليل المعاني الإحسانية التي تثري الفكر وتعينه على التمسك بما يدفع المزالق، ويصرف الأهواء، أن الحديث علَمٌ من أعلام نُبُوَّته ﷺ؛ لأنه أخبر عن غيب وقع بعده، وهو فتح الله على أمته بلدان المشرق والمغرب من ديار الكفر، وذلك كله من خزائن رحمته التي لا تنفد، وجميع الاحتمالات التي أشار إليها العلماء في تأويل معنى (كاسية في الدنيا، عارية يوم القيامة) تُشير إشارة بينة إلى ما سيقع فيه النساء على وجه الخصوص من الركون إلى فتنة المال، وشدة الإسراف في الدنيا[٢].

ومما ينبغي الوقوف عليه في هذا الباب أن الرسول ﷺ قد سنّ مسلكًا ينبغي أن يُسلك في تدبير الحياة وإدارتها بمختلف تقلباتها، وهو أن الأفضل عند وقوع الشر الرجوع إلى الصلاة؛ لذا جاء التحريض على ملازمتها رجاء بركتها؛ لما فيها من الدعاء والعون،﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، زمن هنا جاء توجيهه لأزواجه بـ"الصلاة، والاستعاذة مما نزل؛ ليكونوا أولى من استعاذ من فتن الدنيا، وفيه: أن للرجل أن يوقظ أهله بالليل لذكر الله وللصلاة، ولا سيما عند آية تحدث، أو مأثور رؤيا مخوفة"[٣]. ومجي التحذير بعد التحريض غاية في الوعظ والتنبيه؛ كي لا يُفتن في الدنيا بلبس رفيع الثياب، وفي هذا توجيه صريح إلى حسن الاقتداء،

(١) الفوائد، لابن القيم، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، (القاهرة، دار الحديث، ط٢، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م)، ص١١٧.

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٢٣/١٣؛ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢٢٣/٢٢.

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال، ١٩٠/١.

والحرص على ترويض النفس وتهذيبها، فالشيطان يتصيد القلوب الفارغة، والنفوس الغافلة من ذكر الله. فغاية التنبيه لما حصل في عصرنا هذا من التبرج، والسفور، والتفسخ الذي لا يمكن أن يوجد في أي عصر مما تقدم، وسببه نقص العلم، وقلة الدراية، واتباع الهوى، وهو تبرج وسفور تأباه الفطر السليمة، فعلى العقلاء ردعه ومنعه.

وفي سياق الترهيب يحذر الرسول عليه الصلاة والسلام من سوء عاقبة الولوج في الفتن والتشبث بشيء منها؛ **يقول البخاري حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تَشَرَّفَ لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذًا فليعُذ به»**[(١)].

والحديث إخبار عن فتن ستقع، وهذا من علامات النبوة[(٢)]، والفتنة هي ما ينشأ عن الاختلاف في طلب الملك؛ حيث لا يُعلم المحق فيها من المبطل، فبدأ عليه الصلاة والسلام بوصف هذه الفتن قائلًا: (ستكون فتن)، فالسين لتأكيد أنها واقعة لا محالة، وأن وقوعها سيكون قريبًا، وهذا ما أشار إليه الشراح من تأكيد وقوعها عند مقتل عثمان رضى الله عنه، أي: بعد موت الرسول ﷺ بسنوات قليلة[(٣)]. وفي قوله: (فتن) بالجمع والتنكير دلالة على الكثرة والتهويل والشمول معًا؛ فهي فتن كثرة شديدة مهلكة، تعم البشرية، ويختلط فيها الحق بالباطل اختلاطًا مهولًا مروعًا، وفي التعبير مبالغة في إيضاح شدتها، وخطورتها، وكثرتها.

ولما كان مقصد الحديث التخويف والإنذار؛ لجأ عليه الصلاة والسلام

(١) صحيح البخاري، (تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم)، رقم الحديث (٧٠٨٢)، ١٤٤/٩.

(٢) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١٣٧/١٦.

(٣) ينظر: منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، لحمزة محمد قاسم، راجعه: عبد القادر الأرناؤوط وبشير محمد عيون، (المملكة العربية السعودية، الطائف، مكتبة المؤيد، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م)، ٣٥٥/٥.

إلى بيان أحوال البشر، فجعل الأفضلية لمن يكون أقل شرًّا ممن فوقه، فأعلاهم الساعي؛ لما يُحدثه من إثارة وثوران، ثم الماشي؛ لكونه قائمًا بأسبابها، ثم القائم؛ لكونه مباشرًا لها، ثم القاعد؛ لكونه بعيدًا عن أسبابها لا يقاتل من أجلها(١)، فالقاعد خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، وهذا التعبير من لطائف المعاني؛ لما احتواه من تدرج في التقسيم؛ حيث شمل جميع الهيئات التي يمكن أن يكون عليها حال العباد في سعيهم نحو الفتنة، كما تضمن التعبير لونًا من الكناية في (القاعد – القائم – الماشي – الساعي)، فالقعود كناية عن الاعتزال والتخلي وعدم التطلع، والقيام كناية عن التطلع، والمشي كناية عن السعي والاشتراك غير المباشر، والساعي كناية عن الاشتراك والمباشرة معًا، ومن البلاغة اجتماع الطباق مع الكناية في قوله: (القاعد والقائم)؛ حيث سعى الطباق في رسم صورتين متضادتين لأحوال البشر؛ رغبة في بيان أهمية الاعتزال والتخلي المطلق، فالسعي إلى الفتن لا محالة يوقع في الضرر، ففي لفظ (القاعد) معنى السكون، وفي لفظ (القائم) معنى الحركة، وفي لفظ (الماشي) معنى البطء، وفي لفظ (الساعي) معنى السرعة، وبينهما طباق ظاهر في الأسماء.

ويزداد الإنذار حدة في اختيار الصيغ المعبرة عن المعنى المراد؛ مبالغة في تعظيم الأمر وتفخيمه، وهذا متسق مع مقام التخويف والترهيب؛ لذا قال: (من تشرف لها تستشرفه)، فشبه الفتنة بسبع ماكر مخادع محتال ذي هيبة مروعة، كلما نُظر إليه زاد تهجمًا واحتكارًا، ومن هنا استعير (التطلع والتشرف) للإصابة والهلاك بالشر، والمعنى: من تطلع وتعرض لها دعته إلى الوقوع فيها، يريد: من طالع لها طالعته، ومن انتصب لها انتصبت له، وقيل: هو من المخاطرة والإشفاء على الهلاك، فمن خاطر بنفسه فيها أهلكته(٢)، ولجأ

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٣١/١٣؛ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١٩٠/٢٤.

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٣١/١٣.

الرسول ﷺ إلى هذه الصورة؛ "لأن ذلك أدعى إلى أن يفهموا مراده، ويتأثروا به، ولأن الصورة البيانية تزيد في قيمة الأثر الأدبي، وترفع من شأنه، وتكسو المعاني أبهة تضاعف قواتها في تحريك النفوس لها"(١).

ومما زاد في إظهار قوة المعنى: أسلوب الشرط؛ حيث قوة التأكيد، وإثبات تحقق وقوع الهلاك لمن تطلع إليها، كلٌّ بحسب تطلعه وتعرضه لها، ثم المشاكلة في اختيار لفظ (الاستشراف) دون لفظ (الإهلاك)، فعلى قدر التطلع تكون الإصابة؛ مبالغة في التخويف والترويع، وتنفيرًا من التطلع للفتن. ثم مجي المضارع في (تستشرفه) لتصوير شدة فتكها، وسرعة تضرمها، وقوة جذبها، فهي مهلكة لكل شيء يقع أمامها، والنجاة في التباعد والابتعاد عنها، (فمن وجد ملجأ أو معاذًا) فالفاء دون غيرها إشارة إلى سرعة اللازم والتقيد دون أدنى مهلة، وفي أسلوب الشرط (فمن وجد ... فليعذ به) تأكيد على الابتعاد، وفي إعادة الفاء في الأمر: (فليعذ به) تكليف وإلزام، يوضح أهمية التجرد التام، والتخلي الكلي من ملابسات الفتن؛ ليسلم من شرها.

ومن المعاني التربوية بيان الخيرية والأفضلية في المشاركة في الفتن تحذيرًا من شرها، ففي هذا التحذير دعوة إلى عدم المشاركة فيها، وقد سلك عليه الصلاة والسلام سبيل التصوير بالموازنة، فذكر أن القاعد عن الفتن خير من القائم، وأن القائم فيها خير من الماشي، وأن الماشي إليها خير من الساعي، فكلما استطاع المرء أن يكون أبعد عن المشاركة كان أسلم(٢)، وبهذا يتقرر في العقول أنه لا يجوز للمرء النهوض في شيء من الفتن(٣)، وأنه كلما استطاع أن يفرّ إلى ما يخلص به نفسه فليفعل، وليعتصم بدينه.

وفي هذا السياق يقول البخاري **حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن جابر، حدثني بسر بن عبيد الله الحضرمي، أنه سمع أبا**

(١) ينظر: الحديث النبوي، ص٥٧.
(٢) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي، ٢٦٥.
(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٠/١٠.

إدريس الخولاني، أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنّا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟. قال: «نعم». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟. قال: «نعم، وفيه دخن». قلت: وما دخنه؟. قال: «قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتُنكر». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟. قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها». قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: «هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا». قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟. قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم». قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟. قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[(١)].

والحديث قائم على خاصية التضاد في الجمع بين (الخير) و(الشر)؛ رغبة في إظهار المعنى وتأكيده بصورة أكثر، فالناس يسألون عن الخير المتمثل في عمل الطاعات بمختلف صورها؛ من أجل الاستعانة بهذه الأعمال للوصل إلى الجنة، وفي تعريف المسند إليه (الناس) دلالة العموم؛ إذ أراد عموم المسلمين الذين كانوا يسألون الرسول ﷺ عن أمر الدين، واستثناء حذيفة نفسه للمغايرة في بيان ماهية السؤال، وإنما كان هذا انعكاسًا لحالة الحرص المصاحب للخوف؛ مما قد يشوب صفو الإيمان من شرٍّ قد يحدث مستقبلًا.

ومن دقائق المعنى في البيان النبوي: حسن التعليل في قوله: (مخافة أن يدركني)، فـ"إن رعاية الاحتماء أولى في دفع الداء من استعمال الدواء، وأن التخلية مقدمة على التحلية"[(٢)]، ثم أسلوب الحوار بين حذيفة ورسول الله ﷺ في بيان ماهية الشر، وحواره صادر من نفس تدفع صاحبها نحو الصواب؛ حتى

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب (كيف الأمر إذا لم تكن جماعة كان تامَّة)، رقم الحديث (٧٠٨٥)، ١٤٥/٩.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسين نور الدين علي بن سلطان القاري، (دار الفكر، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م)، ٣٣٨٠/٨.

لا تزل قدمه في وحل المعاصي[١]، ولا شك، فالحوار ضرب من ضروب التخاطب، يسعى إلى الإرشاد، والتوجيه، والإبلاغ، والإقناع، وقد انتظم بجوار أسلوب الحوار مجموعة من الأساليب البلاغية، منها: التأكيد في قوله: (إنا كنا)، وحاصله ناشئ عن محض ندم لما كانوا عليه من الفساد والكفر، وهو كونا في غاية الرسوخ[٢]، والقصد ترسيخ المعنى، وإزالة اللبس، مع توضيح المراد، فاكتسى المعنى قوة وثباتًا، ثم التخصيص في قوله: (جاهلية وشر)، فالجاهلية لفظ عام يعم جميع مفسدات التوحيد، و(الشر) لفظ خاص يتمثل في الكفر، ففي ذكر الخاص بعد العام دلالة على مزيد التأكيد والإيضاح. ثم الاستفهام الحقيقي الدال على طلب العلم بأمر مجهول لحذيفة رضي الله عنه، فقد جاء الاستفهام في قوله: (فهل بعد الخير من شر؟، وهل بعد ذلك الشر من خير؟، فهل بعد ذلك الخير من شر؟)، ويراد بهذه التساؤلات التقرير، فمعرفة ﷺ بالأحوال والتغيرات أمر معلوم؛ لأنه "علم من أعلام النبوة؛ إذ إنه يخبر حذيفة بأمور مختلفة من الغيب لا يعلمها إلا من أوحي إليه بها"[٣]، فأراد أن يقررها في نفس السائل والسامع للأخذ بها. ومن سمات البلاغة النبوية في سياق الحوار: خطاب الرسول بأداة النداء (يا) فنزّله منزلة البعيد رفعًا لمكانته وإجلالًا لشانه، ثم اختيار لفظ (النبوة) مضافًا للفظ (الجلالة) –يا رسول الله– تشريفًا وتعظيمًا، وأن الإلمام بالأحداث والتغيرات التي ستقع دليل قاطع على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

ومن بلاغة التراكيب: الكناية في قوله: (وفيه دخن)، والمراد: سيكون خير ولكن به شر، "فلا يكون خيرًا صفوًا بحتًا، بل مشوبًا بكدورة وظلمة"[٤]، فكما أن الدخان يفسد ما يخلطه؛ فكذلك الفتن تفسد القلوب وتضلها عن قبول

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٣٥/١٣.
(٢) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٣٨٠/٨.
(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١٩٥/٢٤.
(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٣٨٠/٨.

الحق. ثم التقابل المعنوي في: (تعرف منهم وتنكر)، والمعنى: طائفة من جماعة المسلمين تعرف فيهم الخير فتقبل، وتعرف عنهم الشر فتنكر، وهم الأمراء من بعد الرسول ﷺ، فمنهم من يتمسك بالدين الحق ويدعو إليه، ومنهم من يدعو إلى البدع وينشر الفساد(١). ثم المجاز المرسل في قوله: (دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم قذفوه فيها)؛ إذ عبر عنهم بما يؤول إليه حالهم يوم القيامة؛ لكونهم في الدنيا قد امتثلوا الشر، ولازمهم الجور، والضلال، والتفرق، والخلاف، فاستحقوا هذا الوصف ترهيبًا وتحذيرًا؛ لشدة ضلالهم وإضلالهم الناس، يصدون عن الهدى بأنواع التلبيس؛ حتى يُقذون في جهنم كما قذفوا فيها، وفي التعبير بـ(أبواب جهنم) مبالغة في تصوير عِظم الأمر وشدته، فكل لون من التلبيس في الدنيا بمنزلة باب من أبواب جهنم، ومع هذا الوصف أمر الرسول ﷺ بلزوم جماعة المسلمين، ولم يأمر بتفريق كلمتهم وشق عصاهم؛ لأن في الخروج مخالفة، والله لم يكن ليجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، والجماعة حبل الله، فالذي يُكره من الجماعة خير من الذي يُحب من الفرق على مختلف أنواعها وألوانها(٢). ومما زاد في إعلاء نبرة الخوف والترهيب قوله: (من أجابهم إليها قذفوه فيها)، بسبب ما لديهم من الجهل والكفر أوجدوا لهم الإجابة، وتلك الاستجابة توجب سرعة القذف في النار، والقذف لا يكون إلا بشدة وعنف، وفيه يكون العذاب أشد وأنكى، فاستعير القذف للرمي، وهذا غاية في الترهيب والإنذار والتحقير، ودلالة الفعل الماضي (قذفوه) إشارة إلى إنه كائن لا محالة.

وفي وصف هذه الجماعة قال عليه الصلاة والسلام بطريق الإيجاز، والكناية، والمجاز، (هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا)، فالإيجاز في شمول المعاني بأقصر الألفاظ، والسياق يقتضي هذا اللون من الإيجاز، إلى جانب

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٣٦/١٣؛ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٣٨٢/٨.

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٣٦/١٣.

دلالة المضارع (يتكلمون) على استحضار مشهد حديثهم المتكرر المتجدد حول الفساد والشر، والكناية في قوله: (جلدتنا ... ألسنتنا) كناية عن (العرب، واللغة العربية)[١]، وقد يُحمل المعنى على المجاز المرسل؛ لعلاقة المجاورة في قوله: (من جلدتنا)؛ إذ ذكر الجلد وهو غشاء الأبدان وغطاؤها، وأراد الأنفس؛ لشدة الالتصاق والتعلق[٢]، ثم ذكر (اللسان) وأراد اللغة، أي: بما قاله الله ورسوله ﷺ من المواعظ وما في قلوبهم شيء من الخير، فهم كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١].

ولما انكشف للرسول ﷺ شدة الهلاك المترتبة على معايشة الفتن والمشاركة فيها، وفرط ما سيقع من الفساد؛ لجأ إلى دلالة الأمر في قوله: (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة)، فالأمر بالاعتزال رحمة وحماية للدين والبشرية معًا؛ لذا جاء بالفاء رغبة في سرعة الالتزام بالتكليف دون أدنى مهلة؛ لأن المكوث في الفتن سرعان ما يفسد الدين ويهلكه، وفي إيثار لفظ (كلها) تأكيد على معنى العموم لجميع تلك الفرق، وثمرة الاعتزال (أن تعض بأصل شجرة) تكمن في مخالفة الهوى في اجتناب المناهي، مع المكابدة على أداء الأوامر؛ ليكون هذا الامتثال أجدر لسلامة الدين، وأقوى في الثبات، وفي الكناية مبالغة في الوصف والتصوير، فالعض بأصل شجرة لا يكاد يكون، وقد قربه من الصحة والإمكان دخول لفظ (لو)، فهو اعتزال لا غاية بعده[٣]؛ حيث شدة المشقة والمجاهدة والمكابدة والصعوبة، ولا يتحقق هذا الامتثال إلا بعزم شديد، وهمة قاطعة، ونية جازمة، وترويض للجوارح، والمعنى: ولو أن تعض بأصل شجرة خير من الدخول في طائفة لا إمام لها؛ خشية ما يصيبهم من سوء عاقبة فساد الأحوال باختلاف الأهواء، وتشتت

(١) ينظر: السابق.

(٢) ينظر: السابق.

(٣) ينظر: فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٣٦/١٣؛ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١٩٤/٢٤.

الآراء، فعليك بالعزلة، والصبر على مكابدة الشدائد(١).

والقيم التربوية من الحديث تتمثل في الآتي:

- وجوب لزوم جماعة المسلمين وعدم الخروج عنها، فإن في الامتثال طاعة، وفي الخروج معصية؛ لما تحققه الجماعة من الاجتماع، والاتحاد، والهداية، لا التفرق، والاختلاف، والضلال، ولا شك، فإن الأمر باعتزال الفتن والفرق الضالة نعمة عليّة، تُعلّم المرء أن الانضمام إلى أصحاب الفتن نقصان يُضعف الإيمان ويزلزله. ومن هنا جاء التحذير والإنذار مما كان عليه حال بعض الأفراد والجماعات من الخروج على إمام المسلمين، وشق عصا الطاعة، وتفريق شمل الجماعة، وهذا من أقبح صور الفساد في الأرض، يقول الحق محذرًا: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].
- يؤخذ من هذا الحديث سعة صدر الرسول ﷺ في استجابته لأسئلة الصحابة؛ حيث كان يجيب كل سائل بما يناسب سؤاله، وفي هذا تربية نبوية شريفة، تعلمنا المنهج الصحيح في التخاطب والتحاور مع الآخرين في كافة مجالات الحياة، فإن في التواصل الحواري قدرًا عاليًّا من الود والمحبة والاحترام، وهذا يترتب عليه: تقويم السلوكيات الخاطئة، وتحقيق الإقناع، وتعزيز الوجدان.
- أن الغاية الأساسية من الحوار المتعقل تتمثل في: طلب معرفة الحق، والإقناع العقلي، وهذا ما جاء متمثلًا في حوارات الصحابة مع الرسول ﷺ في سياق أحاديث الفتن.

ويأخذ التحذير والإنذار طرائق متعددة في سياق أحاديث الفتن، ومن ذلك ما دار بين حذيفة وعمر رضى الله عنهما في تدبر أقوال الرسول ﷺ

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٣٦/١٣.

ومراجعتها؛ رغبة في الإعلام والوعظ والإنذار، وتخويفًا من الفساد والهلاك والعذاب، يقول البخاري: **يحدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا شقيق، سمعت حذيفة، يقول: بينما نحن جلوس عند عمر، إذ قال: أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة؟ قال: "فتنة الرجل في أهله وولده وجاره، تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر. قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا. قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح؟. قال: بل يكسر. قال عمر: إذًا لا يُغلق أبدًا. قلت: أجل. قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب؟. قال: نعم، كما يعلم أن دون غدٍ ليلة، وذلك أني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط. فهبنا أن نسأله: من الباب؟، فأمرنا مسروقًا فسأله، فقال: من الباب؟. قال: عمر"**[(١)].

ولما كان مقصد الحديث الإخبار عن الرسول ﷺ بشأن الفتن، عدل حذيفة –حين سأله عمر– عن الإخبار بالفتنة العظيمة إلى الإخبار بالفتنة الخاصة؛ لئلا يُغم ويُشغل باله، وهذا باب من أبواب رعاية مقتضى الحال، ومن اللطف والشفة البدء بالأيسر؛ لكون السؤال يحتمل أمورًا عدة؛ تجنبًا لإحداث الفزع والخوف والهلع في نفس عمر؛ لذا بدأ حذيفة بالفتنة الخاصة، وهي (فتنة الرجل في أهله، وماله، وولده، وجاره)، وتلك صغائر الذنوب التي تصيب المسلمين عامة، وتقتضي لونًا من المحاسبة، وتكفرها (الصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)، ومن البلاغة ذكر العام بعد الخاص؛ إشارة لما للصلاة والصدقة من أهمية؛ تعظيمًا لقدرهما، وهذا لا ينفي أن يكون غيرها من الحسنات ليس بصالح في تكفير تلك الفتنة[(٢)]، يقول الحق تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[هود: ١١٤]، وفي الآية إشارة

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب (الفتنة التي تموج كموج البحر)، رقم الحديث (٧٠٩٦)، ١٥٢/٩.
(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٦٠٥/٦؛ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٣٠١/٨.

إلى أن التكفير لا يختص بما ذكر حذيفة، والضابط "أن كل ما يشغل صاحبه عن الله فهو فتنة له، وكذلك المكفرات"[١]، فالفتنة في "الأهل تقع بالميل إليهن أو عليهن في القسمة والإيثار، حتى في أولادهن من جهة التفريط في الحقوق الواجبة لهن، والفتنة بالأولاد تقع بالميل الطبيعي إلى الولد، وإيثاره على كل أحد، والفتنة بالمال بالاشتغال به عن العبادة، أو بحبسه عن إخراج حق الله، والفتنة بالجار تقع بالحسد، والمفاخرة، والمزاحمة في الحقوق، وإهمال التعاهد"[٢]. وهذا النوع مما يشوب الدين ويعكره، ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يسأل عنه؛ لعلمه به، وإنما سؤاله عن الفتنة العظيمة، ففي قوله: (ليس عن هذا أسألك) إشارة إلى فظاعة الأمر المشار إليه، وأنها فتنة داهية دهماء[٣]، ومعلوم "أن الجاهل بالشر أسرع إليه، وأشد وقوعًا فيه، وأجدر أن يقع فيه"[٤]، وهذا منهج ينبغي امتثاله كما فعل عمر رضي.

وفي التشبيه مبالغة في التنفير والتحذير والإنذار، فجعل فعل الفتنة في الناس كفعل الموج المتلاطم في البحر؛ لما تُحدثه من شدة الاضطراب والاختلاط والتداخل واللبس وفي إيثار التعبير بالمضارع (تموج) استحضار لمشهد التدافع والتداخل والاضطراب الشديد، وفي التعبير بيان لمعنى "شدة المخاصمة، وكثرة المنازعة، وما ينشأ عن ذلك من المشاتمة والمقاتلة"[٥].

ومن البلاغة النبوية استخدام أساليب اللين والتلطف في الخطاب، ومن ذلك قول حذيفة لعمر رضى الله عنه: (ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، وإن بينك وبينها بابًا مغلقًا)، ولم يقل: (أنت الباب يا عمر)، ولا خفاء، فمبدأ هذه الفتنة هو قتله عليه الرضوان[٦]، ومع ذلك اختار الألفاظ القادرة على

(١) فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٦٠٥/٦.
(٢) السابق.
(٣) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٤٣٥/١١.
(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال، ٤٥/١٠.
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٦٠٦/٦.
(٦) ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأبي بكر عبد الملك أحمد القسطلاني القتيبي، (مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، ١٣٢٣هـ)، ٤٦/٦.

إيصال المعاني مع رعاية حال المخاطب "فليس لك ولها اقتران واجتماع في زمان"[١]، وفي قوله: (إن بينك وبينها بابًا مغلقًا) استئناف تعليل، فلا يخرج من تلك الفتنة شيء في حياتك، ولم يصرح، بل لجأ إلى الكناية عنها بالباب المغلق؛ ولعل هذا دليل على رغبة حذيفة في حفظ سر رسول الله ﷺ من جانب، ورغبة في ألا يواجهه بما يشق عليه[٢]، فكانت فتنة القتل دارًا لها باب، وحياة عمر بن الخطاب باب تلك الدار، فهو باب مغلق ما دام حيًّا، وهذا التعبير مما يوجب في النفس خوفًا ورهبة وذعرًا، فجاء السؤال (أيكسر الباب، أم يفتح؟)، ويأتي الجواب (بل يكسر)، وكسر الباب كناية عن الغلبة والقهر والإكراه، وهذه الغلبة لا تكون إلا في الفتنة، واختيار لفظ (الكسر) دون غيره، ومجيء الجواب بـ(بل يكسر)؛ مبالغة في إبراز المعنى، والتنبيه على أن الأنسب لهذا السياق هو إظهار كسر الباب، فإنه إن انكسر فلا يتصور غلقه مطلقًا[٣]، وهذا المعنى متحقق في قوله (إذًا لا يغلق أبدًا)، فـ"بأس الأمة بعد مقتل عمر رضي الله عنه واقع ماثل بينهم، وأن القتل لا يزال إلى يوم القيامة"[٤]، وفي الحديث تنبيه، ووعظ، وتحذير من الركون إلى مسببات الفتن، وعلى الأخص فتنة القتل.

ومن أعظم المقاصد التربوية التي تحققها بلاغة التخويف ما يأتي:

- على المرء تجنب الإفراط والإهمال في حق الأهل، والمال، والولد، والجار، فمن الواجب استيفاء حق الله فيهم؛ مراعاة لقول الرسول ﷺ: «**كلكم راع، وكل مسؤول عن رعيته**»[٥].

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٤٢٥/٨.

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٦٠٦/٦.

(٣) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٦٠٦/٦؛ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٤٣٦/١١.

(٤) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٦٠٦/٦.

(٥) صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب (العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه)، رقم الحديث (٢٤٠٩)، ١٣٠/٣.

- يُعلمنا الدين الحنيف أصول العلم الصحيح لإحداث التأثر والتأثير من خلال ضرب الأمثال، ومن الضروري على العالم أن يتقن أصول التخاطب مع الآخرين، مع رعاية حال المخاطب، ومقامات الخطاب، فقد يتطلب منه الخروج عن التصريح إلى التورية والتعريض، والإشارة والتلميح، كما فعل حذيفة في حواره مع ابن الخطاب رضى الله عنه، فعلى العالم "أن يرمز بالكلام رمزًا ليفهم المرموز له دون غيره؛ ولأنه ليس كل العلم تجب إباحته على من ليس بمتفهم له ولا عالم بمعناه"(١).
- يعلمنا الدين الحنيف حسن السؤال، والتأدب في الحوار، والتأني في معرفة المراد، فالصحابة رضوان الله عليهم خير مثال للاقتداء والامتثال، فلم يتهجموا على حذيفة، بل هابوا أن يسألوه –احترامًا وإجلالًا لعلمه–، فعينوا مسرقًا فسأله عن ذلك الباب، فقال: عمر.

ويأتي في سياق التخويف التنويه بالوقائع التي حدثت؛ رغبة في القضاء على مظاهر الاختلاف والتفرق والنزاع؛ كي لا تتحول إلى قتال، وفي هذا السياق **يقول البخاري حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، وحدثنا إسماعيل، حدثني أخي، عن سليمان، عن محمد بن أبي عتيق، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، أن زينب بنت سلمة، حدثته عن أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن زينب بنت جحش: أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه». وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أفنهلك وفينا الصالحون؟. قال: «نعم، إذا كثر الخبث»**(٢).

فاستيقاظه صلى الله عليه وسلم من نومه محمرًا وجهه ينذر بالخطر، وثير الانتباه، فقد قام فزعًا لهول ما وقع من الفتن، فمن شدة وقعها في نفسه

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٣٠٢/٨.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب (يأجوج ومأجوج)، رقم الحديث(٧١٣٤)،١٦٩/٩.

أخذ لسانه يلهج بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وفيها إشارة بينة إلى أن مكروهًا وقع وسيتسع وقوعه[١]، فلا منجا منه إلا بلزوم التوحيد لزومًا صادقًا. وهذا الأمر قاده إلى إيثار التنكير في (ويل)، وهو أسلوب تخويف وتحذير، وقد أبرز اللفظ خاصيتين، الأولى: "إظهار الحزن، والهلاك، والمشقة من العذاب"[٢]، والثانية: الإنذار من حلول الشر، فهو يخوفهم بالعلامات؛ ليتوقفوا عن الخوض في الفتن، وليتأهبوا لنزولها بالصبر[٣]. وقد خص (العرب) "لأنهم أول من دخل الإسلام، وللإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك أسرع إليهم"[٤]، واللام في ٠(للعرب) أفادت التخصيص، والتخصيص يزيد الموقف النفسي تصعيدًا[٥]

ومن لطائف التنكير في قوله: (من شر) تعميم لمطلق الشرور في جميع الأكوان والأزمان، ومرجع الشر تفشي المعاصي والمنكرات على اختلاف ألوانها، وتعدد طرائقها؛ لذا قال عليه الصلاة والسلام: (قد اقترب) إشارة إلى أن "قرب ذلك الشر غاية في القرب"[٦]، وتعبيره ب(اقترب)على وزن(افتعل) تخيل للمخاطب فاعلها وهو الشر المجهول، وكأنه وحش يزحف نحوه يوشك أن يتخطفه، تنبيه للغافلين وزجر للمذنبين[٧].

وغاية الفزع والاضطراب أنه ﷺ يخبر عن أمر غيبي شاهده، وهو قوله: (فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه)، فالفتح وقع في عهده، ولا يزال يستدير ويتسع على مر الأزمان حتى قيام الساعة[٨]، فقد شبه الرسول ﷺ قدر

(١) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية،ص ٧٦، التشويق في الحديث النبوي، ص١١٥.
(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢٣٥/١٥.
(٣) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ١٣/١٣.
(٤) السابق.
(٥) ينظر: بلاغة الرسول في تقويم أخطأ الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين، ناصر راضي الزهري إبراهيم،(دار البصائر،ط١، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م)،ص٤٣.
(٦) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٣٤٦/٨.
(٧) ينظر: بلاغة الرسول في تقويم أخطأ الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين، ص٤٣.
(٨) وفيه: "ويأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدًا. فيعيده الله كأشد ما كان، حتى إذا بلغ مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم، قال الذي عليهم. ارجعوا فستخرقونه غدًا إن شاء الله. واستثنى، قال: فيرجعون فيجدونه كهيئته ...". فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ١١/١٣ .

ما فُتح من السد بصفة معروفة عندهم، فهو "تشبيه ينتقل بالصورة من عالم الخيال في عقول المخاطبين إلى الواقع المدرك بحاستي السمع والبصر، وهو اقوى في تثبيت المعنى وتقويته"(١)، فجاءت الإشارة لتقريب التمثيل، لا حقيقة التحديد(٢)، والمعنى غاية في الترهيب، والتخويف، والإنذار؛ لاستثارة النفوس لمعرفته ولبيانه، فإن (تكرار كلمة التوحيد، واختيار لفظ: ويل) قد أثار في النفس تساؤلًا من شأنه أن يجعل المعنى متمكنًا أفضل تمكين، فيتحقق المقصد الأعظم من السياق، وهو العمل بموجب الترهيب والتحذير.

ويبلغ التحذير مداه في الإعلام بأن المعاصي أصبحت تقترف جهارًا؛ لذا جاء الاستفهام (أفنهلك وفينا الصالحون؟)يحمل تعجبنا واستبعادًا لوقوع الهلاكوبينهم رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتأتي الإجابة: (نعم، إذا كثر الخبث)(٣)، وقيل: المراد بالخبث: الفسوق، والفجور، والزنى، وقيل: المنكرات في الدين بجميع أنواعها(٤). ومن دقائق المعنى مجيء أداة الشرط (إذا) على تقدير محذوف لجوابها (إذا كثر الخبث تحقق الهلاك) (٥)، فحصول الهلاك والعقاب عند وقوع الخبث أمر متحقق لا محالة، وعليه، جاء البيان بأن الْخَيّرَ يهلك بهلاك الشرير إذا لم يُغير عليه خبثه، وكذلك إذا غير عليه لكن حيث لا يجدي ذلك، ويصر الشرير على عمله السيء، ويفشو ذلك ويكثر حتى يعم الفساد، فيهلك حينئذ الصالحون(٦) .

والقيم التربوية تتمثل في الآتي:

- حرص البيان النبوي الشريف على أن يقدم للمخاطب أحداثًا ووقائع ومشاهد مخيفة مفزعة، ذات انفعال شديد يحمل طاقات من القوة والشدة

(١) بلاغة الرسول في تقويم أخطأ الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين، ص٤٤.
(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلان ١١/١٣ .
(٣) ينظر: التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه،ص١١٦، بلاغة الرسول في تقويم أخطأ الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين،ص٤٤
(٤) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ١١/١٣ .
(٥) ينظر: بلاغة الرسول في تقويم أخطأ الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين،ص٤٤
(٦) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ١١/١٣ .

والغضب، تنعكس آثارها على النفس البشرية، فتمنحها حسن الرجوع، وحسن الانتفاع، وحسن الوعظ، فالانتفاع بالعظة هو: أن يقدح في القلب قادح الخوف والرجاء فيتحرك للعمل؛ طلبًا للخلاص من الخوف، ورغبة في حصول المرجو. والعظة هي: الأمر والنهي المقرونان بالترغيب والترهيب، وهي نوعان: عظة بالمسموع، أي: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد والنصائح التي جاءت على لسان الرسل، وعظة بالمشهود، أي: الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر(١)، وكل ذلك رغبة في الثبات والرسوخ، ورهبة من دواعي التحول والانحراف.

- من صلاحية الدين الإسلامي لكل زمان ومكان أن الإخبار بهذه الوقائع والأحداث مناسب لما عليه حال الأمة الإسلامية والعربية اليوم، فهي أشد وأحوج ما تكون لمثل هذا، فالنفس البشرية قد يعتريها الضعف ساعة الابتلاء والامتحان، والفتن أشد وأقوى بلاء وامتحان؛ فتحتاج إلى ثوابت تقوي عزائم الإيمان فتصبر، وتعمل، ويسعى لردع الشرور والآثام، فمخالطة أصحاب المنكرات والمفسدات من أقوى طرق الهلاك، فالواجب الإنكار والإعراض والتخلي معًا، فكيف تكون المعايشة في مجتمع قد فاض به الفساد والضلال؟!، والرسول الأمين ﷺ قد قال محذرًا: (نعم، إذا كثر الخبث) بجميع أنواعه العملي والفكري، المتعلق بالشهوات والمتعلق بالشبهات، إذا كثر وعجز الناس عن إنكاره ومقاومته هلكوا وفيهم الصالحون، هذا المخيف المهول الذي يخشى منه (٢).

(١) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ص٤٤٢.
(٢) ينظر: شرح كتاب الفتن من صحيح البخاري، عبد الكريم الخضير، ص١١.

المبحث الثاني:

التخويف بعلامات الساعة: الوجهة البلاغية، والقيمة التربوية

ومما يبعث في النفس (الخوف، والهلع، والفزع) يقول البخاري **حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال سعيد بن المسيب: أخبرني أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تُضيء أعناق الإبل ببُصرى»**[1] .

وهذا الحدث العظيم قد أخبر العلماء بحقيقة وقوعه في القرن السابع سنة ٦٥٤هـ[2]، "فظهور هذه النار اشتهر اشتهارًا حتى بلغ حد التواتر عند أهل الأخبار"[3]، ومن هنا، فحقيقة وقوعها دليل صدق نبوة محمد ﷺ، وإشارة بالغة الأهمية لما تُحدثه في نفوس البشرية من المسارعة إلى التوبة، والاجتهاد في الطاعات، وعدم الإصرار على اقتراف المعاصي، وخروج هذه النار بعظمتها، وسعتها، واشتعالها، وامتدادها أمر مهول مفزع، فلا تستطيع العقول أن تدرك ما فيها من مخاوف وأهوال؛ لذا جاء التنكير في (نار)، ودلالة (لا تقوم الساعة) للتحذير والإنذار، ويقول القرطبي في وصف تلك النار: "قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكنت، وظهرت النار بقريظة بطرف الحرة، تُرى في صورة البلد العظيم، عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج ومآذن، وترى رجال يقودونها، لا تمر على جبل إلاّ دكته وأذابته، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر، ونهر أزرق له دويّ كدويّ الرعد، يأخذ الصخور بين يديه، وينتهي إلى محط المركب العراقي، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم، فانتهت النار إلى قرب المدينة، ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد، وشُوهد لهذه النار غليان

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب (خروج النار، أي: من أرض الحجاز)، رقم الحديث (٧١١٨)، ١٦٢/٩.

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني،٧٩/١٣.

(٣) السابق.

كغليان البحر، وقال لي بعض أصحابنا: رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام، وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى"[١]، وكأنها من فرط شدتها ترمي بشرر كالقصر، ولفرط سعتها "كأن في بيت كل واحد سراج"[٢]، ومن شدة توهجها ونورها فقد رأوا صفحات أعناق إبلهم في شدة سواد الليل[٣]، و"يحمل إضاءة أعناق الإبل ببصرى على وجه المبالغة، وذلك في لغة العرب سائغ، وفي باب التشبيه في البلاغة بالغ، وللعرب في التصرف في المجاز ما يقضي للغتها بالسبق في الإعجاز، وعلى هذا يكون القصد بذلك التعظيم بشأنها، والتفخيم لمكانها، والتحذير من فورانها وغليانها"[٤].

وتتمثل القيمة التربوية في أن الإخبار الصادق عن الأمور الغيبية من أعظم الأسباب الدافعة إلى لزوم الإيمان لزومًا متمكنًا يدعو إلى تنمية الفطرة، واتباع العقيدة، فالمقصد الأعظم من وصف تلك النار إعلام البشر بما سيقع من دلائل، وهذا دافع عليٌّ يوجب التخلي عن المعاصي والفتن بجميع ألوانها، كما أن في الإعلام بالأمور الغيبية تخويفًا إيجابيًّا يعين المرء ويدفعه إلى التبصر في عقيدته، والعمل على تنمية فطرته السوية التي هي فطرة الله، ولا ريب، أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يُوجب انصداع القلب وانخلاعه؛ حسرة على ما فرط، وخوفًا من سوء العاقبة، فمن لم يتصدع قلبه في الدنيا حسرة وخوفًا تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين العقاب، فلا بد من انصداع القلب وتقطعه إما في الدنيا، وإما في الآخرة[٥].

وفي سياق ذكر أحوال يوم القيامة يقول الرسول ﷺ محذرًا من الشرك: **يقول البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: قال سعيد بن المسيب، اخبرني أبو هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه**

(١) المرجع السابق، ٧٩/١٣.
(٢) السابق.
(٣) ينظر: السابق.
(٤) السابق.
(٥) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ص٢٠٤ بتصرف يسير.

وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة»[1].

والحديث قائم على الدقة والإيجاز؛ حيث صور مشهد طواف نساء دوس حول ذي الخلصة، وجاء الوصف بإيثار المضارع في (تضطرب) ليصور مشهد الرغب والفزع؛ ليبث في النفوس ذلك المشهد رهبة وارتياعًا؛ لشدة ما فيه من تدافع وتداخل واضطراب، فالحركة في غاية من السرعة لدرجة أن أعجازهن ترتج مضطربة، فتضرب عجيزة بعضهن ببعض[2]، وكل هذه المعاني تدل على أنهن "يكفرن ويرجعن إلى عبادة الأصنام"[3]، وفي الوصف مبالغة في تهديدهم، وتخويفهم، وتقريعهم على تركهم عبادة الله إلى عبادة الأصنام.

ومن لطائف النظم النبوي قوله: (لا تقوم الساعة حتى تضطرب)، وهذا غاية في التحذير والتهديد والتنبيه، ومقتضى ذلك تحقق الإعلام بأن قيام الساعة لا يحصل بدون هذه العلامة المفزعة المروعة لنساء دوس، فجاءت (حتى) الغائية لبيان المعنى، وأن هناك مسافات بين الإعلام بهذا الحدث وتحقق وقوعه، فلا بد من التحرر من الكفر، وعدم الإصرار على ملازمته، واختيار (النساء) فيه دلالة على سرعة تفشي الجهل والسفور في مجتمعاتهن، والحاصل اليوم في الحفلات والأسواق يُعد صورة من صور التدافع حول المنكرات بشتى أنواعها. ومن البلاغة النبوية في النظم المجاز المرسل في (حول ذي الخلصة)؛ إذ أطلق المحل وأراد الحال فيه، وهو الصنم.

ومن أجل القيم التربوية في الحديث: أن التذكير بأسباب العذاب من أرفع مقامات التصعيد الإيماني؛ لما يوجبه من خوف وقلق يُسهمان بشكل

---

(١) صحيح البخارين، كتاب الفتن، باب (تغير الزمان حتى تعبد الأوثان)، رقم الحديث (٧١١٦)، ١٦١/٩.

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٧٦/١٣؛ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٥٠١/٨.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢١١/٢٤.

فاعل في تقوية الإيمان وبطلان الكفر في النفوس المقبلة والمعرضة معًا، فالإيمان سعادة أبدية، والإعراض شقاوة سرمدية، والأمة بحاجة ماسة إلى مزيد من الشدة والحزم فيما يخص أمر العقيدة الصحيحة، وبلاغة التخوف ذات اعتلاق بالغ بدلالة السياق في الحديث؛ لما تحقق فيه من الوعظ والتنبيه والتوجيه على جواز هتك ما افتتن به الناس، وهذا أصل في العناية بمظاهر التصعيد الإيماني المقتضي القضاء على الفتن(١).

ويزداد معدل الانفعال والخوف في توظيف الترهيب والتهديد بما يتناسب مع السياق، فقد قال البخاري: **حدثنا أبو اليمان، اخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يُقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه عليه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب به. وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه. وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس –يعني: آمنوا– أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يُليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أُكلته على فيه فلا يطعمها"**(٢).

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٧٦/١٣ بتصرف.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان)، رقم الحديث (٧١٢١)، ١٦٣/٩.

بدأ الحديث بالتدرج في الإعلام بالوقائع والأحداث على نحو دلالي متسق في تساوي بناء العبارات؛ حيث جاءت متناسبة ذات أثر يزيد من حدة الانفعال؛ لقوة في المبالغة، ولشدة في التهويل، ومن دقائق المعنى التعبير بـ(حتى) بمعنى (إلى) وتكون بمعنى (الغاية)، والغاية تعني أن يكون ما بعد (حتى) غاية انقضاء وانتهاء لما قلبها، وهذا من دقائق المعاني البلاغية التي اقتضاها مقام التخويف والتهويل، فمتحقق أن الساعة لا تقوم:

- **حتى** تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة.
- و**حتى** يبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله.
- و**حتى** يُقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، وهو القتل.
- و**حتى** يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه عليه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب به.
- و**حتى** يتطاول الناس في البنيان.
- و**حتى** يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه.
- و**حتى** تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس –يعني: آمنوا– أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا.

والناظر في بناء الحديث يلحظ أن المعاني النبوية قد بلغت من الإحكام، والانسجام، والتسلسل مبلغًا عظيمًا، يجعل جزئيات معاني الحديث مترابطة محبوكة، يشد بعضها بعضًا في تماسك متين، فكل جزئية من المعنى متممة لما قلبها، وممهدة لما بعدها[1]، فالتراكيب المتكررة والمتشابهة حققت في النص النبوي عمق التآخي، والتواصل، والتقارب، وأن النص مكون من عائلة واحدة، ذات سمت واحد، تجمعهما ملامح واحدة[2]، **فالفتنة الأولى**: تصور شقاق

(١) ينظر: الحديث النبوي، ص٥٦.

(٢) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، دراسة في سمت الكلام الأول، ص٣٨٢.

عظيم بين المسلمين يتطور إلى قتال، والقتل من أعظم الكفر، بسببه يكون العصيان والمخالفة للشرع، ومن البلاغة في القول اجتماع التكرار والتنكير ليحصل الإنذار الشديد؛ إعلامًا بأن الخطر قد بلغ منتهاه، فهي فتن عظيمة، متجددة، مستمرة، تُخلف ورائها معارك قوية، وحروبًا دموية، نتائجها زهق الأرواح، وزهق الحق، وعلى رغم من أن محط دعوى هاتين الفئتين شهادة التوحيد، إلا أنها سبب الاختلاف، والنزاع، والشجار، وهذا أشد ما يكون من الفتن، وفي السياق دعوة إلى المسارعة في الإصلاح، وكف الشر، يقول الكرماني: "والطائفتان هما: طائفة علي ومعاوية"(١).

والفتنة الثانية: ظهور (دجالون كذابون)، وفي إيثار جمع النكرات مبالغة في إظهار معنى الكثرة، فهم جماعة غايتها التدليس، والتضليل، والتمويه، والخداع، "والفرق بينهم وبين الدجال الأكبر أنهم يدعون النبوة، وهو يدعي الإلهية، ولكِنهمْ كلهم مشتركون فِي التمويه، وادعاء الباطل العظيم"(٢)، وفي مجيء لفظ (ثلاثين) مبالغة في الكثرة، لا التحديد والحصر(٣)، وقد يراد المبالغة في انتشار الفساد في البلاد والعباد معًا، وهذا الفساد صورة من صور الابتلاء للأمة، فقد يُتبع الدجالون رغبة أو رهبة، كما عليه الحال اليوم من ظهور بعض الجماعات والفرق الضالة(٤) .

و**الفتنة الثالثة:** قبض العلم، ويكون بموت أهل الفقه، والفهم. **والرابعة:** تكثر الزلازل، وفيه إشارة إلى ظهور صور الاضطراب بكثرة مخيفة، فحصل الدمار للعباد والبلاد عقوبة، ووعظًا، وتذكيرًا. و**الخامسة:** يتقارب الزمان، وهي –أيضًا– علامة امتحان وبلاء، فيها عقوبة ووعظ معًا. و**السادسة:** تظهر الفتن على اختلاف أنواعها وألوانها (الشهوات، والشبهات، وفتن الأموال،

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢١٤/٢٤.
(٢) السابق.
(٣) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٨٥/١٣؛ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢١٤/٢٤.
(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٤٠٥/٨.

والأولاد، والأمراض، والغنى، وغيرها كثير ولا يمكن حصرها)، والمراد في السياق الإعلام، والإنذار، ففظاعة الأهوال تورث الخوف؛ مبالغة في الإيقاع بهم، فقد تناهى بهم الذعر من هول ما يُسمع ويُرى من الفتن. و**السابعة:** يكثر الهرج، وهو القتل، وهذه الفتنة من أعظم الفتن انتشارًا وتدميرًا؛ لخطرها على الحياة. **والثامنة:** كثرة المال لدرجة طغيانه على كل مظاهر الحياة، فيصبح علامة حزن وحسرة؛ لعدم وجود من يقبل الزكاة، فيرد على صاحبه لعدم الرغبة فيه، ومن مظاهر الامتحان والابتلاء شدة الانشغال بالمال، وتعدد مصادر اكتسابه. **والتاسعة:** التطاول في البنيان. **والعاشرة:** تمني الموت رغم النفور منه؛ لشدة التهالك على الدنيا. **والحادية عشرة:** طلوع الشمس من مغربها، فالواجب أن يلزم المرء نفسه تجاه المفسدات والمهلكات، وهذا أولى وأنفع وأعظم، "فإن ما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته فزت بالراحة واللذة والنعيم"(١).

ومن دقائق المعاني التي يتطلبها السياق: التتابع الدلالي لصور المضارع –(تقتتل فئتان، يُبعث دجالون، يُقبض العلم، يكثر الزلازل، يتقارب الزمان، تظهر الفتن، يكثر الهرج، يكثر المال، يتطاولون في البنيان، يمر الرجل بقبر الرجل، تطلع الشمس من مغربها)– الذي غلب على تكوين المشاهد والأحداث بصورة كلية تكاد تكون هاجسًا مشيرًا إلى التجدد، والاستمرارية، والتطور في تكرير المشاهد والأحداث المرعبة المخيفة، فهي أحداث كما ترى تتسارع في قوة عارمة، وفي حركات متوترة متلاحقة مفزعة، فالصور والتأملات المرعبة تعكس جوانب إيجابية تدعو إلى التقوى والاستسلام، وتحث على عدم المعاودة والإصرار، ولكل فعل مشهد خاص به يصف معاني (الشدة، والقوة)، ويحمل معاني (الكثرة، والتزايد)، فإن للافعال

(١) الفوائد، ص١١٧.

دلالة عميقة في غيضاح المعاني الترهيبية وترسيخها في النفس(١).

ولما كان المراد المبالغة في الوصف والتصوير عمد الحديث إلى نوع مكثف من الأساليب، زاد من إعلاء نبرة التفجع والتهويل؛ خوفًا من تراكم الفتن، ومن تلك الأساليب الدلالية الاستعارة المكنية في (يُقبض العلم)؛ حيث شبه العلم بإنسان حي ذي روح ونبض، فحذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه وهو (يُقيض)، ففي (القبض) إلمامٌ وتوجع، وعنف وشدة، وهذه علامة تفصح بضرائر الفتن، فلا توقع إلا بلاءً، وشرًّا، ونارًا. وفي قوله: (وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهم رب المال من يقبل صدقته) استعارة مكنية؛ حيث شبه المال بوادي يسيل سيلًا عارمًا، شديد التدافع، سريع الجريان، فحذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه وهو الفيضان. ومن البلاغة النبوية الدقة في اختيار التراكيب السياقية التعريف في (العلم، الزلازل، الزمان، الفتن، الهرج، المال، الناس، الرجل)؛ لاستغراق الجنس استغراقًا كليًا بكل ما يلابسه ويحيط به، وهذا لإظهار معاني الإحاطة والشمول. وتقديم الجار والمجرور (فيكم) في قوله: (وحتى يكثر المال فيكم فيفيض حتى يُهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه عليه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به)؛ لنكتة بلاغية فيكم لا في غيركم، ويشعر التقديم "بأنه في زمن الصحابة، فهو إشارة إلى ما فتح لهم من الفتوحات"(٢)، وفي إيثار صيغ التنكير تهويل للأمر، واختيار لفظ (يُهم) مبالغة في تصوير الحزن والألم الذي أحاط به إحاطة لا يدرك كنهها، والمشهد يحكي فظاعة الموقف. ومن متطلبات المقام مجيء الاستفهام لمن يعقل، والربط بحرف العطف (الفاء)، والجناس الناقص في (رب – أرب)، والجملة الاعتراضية؛ لدفع الإيهام مظنة أن يتوهم غير المراد، حينها أحست القلوب بالهول المروع، والحدث المفزع؛ نتيجة حصول المنال في المال(٣).

(١) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ٧٠.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢١٤/٢٤.

(٣) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٤٠٥/٨.

ومن بليغ الإشارات الدلالية أن الجملة السابقة إشارة إلى "ما سيقع زمن عيسى عليه السلام، والمراد على ثلاثة أحوال: الأولى: كثرة المال فقط في زمن الصحابة. والثانية: فيضه بحيث يكثر فيحصل استغناء كل أحد عن أخذ مال غيره، ووقع ذلك في زمن عمر بن عبد العزيز. والثالثة: كثرته وحصول الاستغناء عنه حتى يُهم صاحب المال؛ لكونه لا يجد من يقبل صدقته، ويزداد بأنه يعرضه على غيره ولو كان يستحق الصدقة فيأبى أخذه، وهذا في زمن عيسى عليه السلام، ويحتمل أن يكون هذا الأخير عند خروج النار واشتغال الناس"[١]، فنتيجة التزايد والتراكم المهلك من سوء المآل جاء بأسلوب التمني (فيقول: يا ليتني مكانه)، فسرعة تمني الأمر المستحيل "لما يُرى من عظيم البلاء، واستيلاء الباطل، وعموم الظلم، واستحلال الحرام، والحكم بغير ما أنزل الله"[٢]، ولشدة همومه في أمر دينه، ولكثرة بلائه[٣]، ومما زاد في بيان قوة المعنى أسلوب الإيجاز والسجع في اختيار العبارات القصيرة ذات المعاني الدلالية، مع توافق وانسجام في ملائمة الحروف الأخيرة من كل عبارة، ومن ذلك قوله: (ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، وحتى يتطاول الناس في البنيان).

ومما أسهم في إبراز فاعلية المعنى: دلالة أسلوب الكناية في (يكثر الزلازل)، كناية عن تغيير معالم الحياة بأكملها، وذكرها في هذا السياق جاء من باب التخصيص؛ لأن المراد شمول حلولها، ودوامها في إظهار معنى الكثرة المطلقة غير المعهودة إنذار يتضمن التخويف[٤]. و-أيضًا- في (يتقارب الزمان) كناية عن السرعة المفرطة في قطع المسافات[٥]، وقيل: هو كناية عن الجهل[٦]، والسياق يحتمل حمله على ذلك، و-أيضًا- في (يتطاولون

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٢٠٦/١٠.
(٢) المرجع السابق، ٢٠٥/١٠.
(٣) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٤٠٥/٨.
(٤) ينظر: السابق.
(٥) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ٥٩/٩.
(٦) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢١٥/٢٤.

في البنيان) كناية عن المباهاة والتفاخر، وتبدل أحوال أهل البادية[١]. فحقق أسلوب الكناية معاني عظيمة استدعاها السياق، تمثلت في إظهار أحوال (التغيير، والتبديل، والتحول) في أحوال البشر عامة، وهذا رمز لصعوبة العيش والبقاء في ظل هذه التقلبات المهلكة، فقد أحاطت بهم مخاطر عظيمة بلغت حدًّا يفوق الوصف.

ويزاد معدل الانفعال حدة في أنه عليه الصلاة والسلام اختتم الحديث بأعظم العلامات، وهي طلوع الشمس من مغربها، وحينئذ يصبح الحدث عيانًا حتى لو آمنوا لا ينفع الإيمان، فلا جدوى من التكليف، وأمرهم حينئذ أشد رعبًا وفزعًا، ومن مواطن البلاغة النبوية الاقتباس من قول الحق تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، و"الحاصل أنه لا يقبل عند ذلك إيمان كافر، ولا توبة فاسق -كما قاله البغوي-؛ لأن المقصود من التصديق والتوبة الإيمان بالغيب، وقد فات بالآية الملجئة ... والتهديد بعدم نفع الإيمان عند مجيء الآية أعظم دليل"[٢]، وفي التذكير والوعظ بهذه العلامات رغبة شديدة في إيجاد سبل الهداية، ومحو أسباب الغواية.

والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يُخبر بجملة من الأمور الغيبية المستقبلية، "ومن شأن الأمور العريبة أن يدخل الشك بها في النفس؛ لعدم وجود الدلائل والأمارات المبشرة بها والمقربة لها، والرسول عليه السلام وإن لم يكن في خبره شك، يؤكد لنا هذه الأخبار تأكيدًا للشاك والمنكر ابتداء لنضعها أمام أعيننا موضع المسلم المجزوم به، برهان منه على نبوته، وثقة من نفسه بها قبل أن يأتي زمانها، وإلقاء بهذه الثقة على رؤرس القرون المقبلة؛ ليشهد

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ٨٥/١٣.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٣٣٣/٧.

آخر الزمان ما شهد أوله من دلائل صدقه ووثائق رسالته، ثم ليحذر المؤمنون على أنفسهم هذه الأمور النازلة"[1]، ومن التراكيب الدلالية قوله:

- **(ولتقومن الساعة وقد** نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه).
- **(ولتقومن الساعة وقد** انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه).
- **(ولتقومن الساعة** وهو يُليط حوضه فلا يسقي فيه).
- **(ولتقومن الساعة وقد** رفع أُكلته على فيه فلا يطعمها).

ومما يزيد من ظهور حدة الانفعال مجي (قد) التحقيقية، ودخولها على الفعل الماضي (قد نشر، قد انصرف، قد رفع)، وقد صدرت الجمل الأربعة لقوله: (لتقومن) بلام الابتداء، ونون التوكيد، وما هو في معنى القسم؛ لبيان أنها أحداث واقعة لا محالة، وأن وقوعها متحقق ثابت، وفي هذا الأسلوب زيادة في الإنذار خوفًا وفزعًا؛ إذ إنها أحداث أشد وأقوى في الدلالة على حصول التخويف رغبة ورهبة، والمؤمن الحق من كمّل قوته العملية بالإيمان، وقوته العملية بالأعمال الصالحة، والمعرض من تولى وأدبر واستغنى، ولا شك، أن المفردات في السياق تحكي مقدار شدة الذهول، ومطلق السرعة، والغاية العظمى من ورائها الإشعار بما هو أعظم، كيف وقد تناهى بهم الذعر والفرغ حتى كانت تلك أحوالهم، فشدة الفزع سلب قواهم، وأسدل عليهم غشاوة ملأت نفوسهم رعبًا فموتًا، فالرجلان قد نشرا الثوب للبيع فتقوم الساعة فيموتان قبل بيعه أو طيه، والرجل أخذ حليب ناقته فتقوم الساعة فيموت قبل أن يشربه، والرجل يصلح الحوض ويطينه ليسقي فيه إبله فتقوم الساعة قبل أن يسقي فيه، والرجل يغمس اللقمة ثم يرفعها إلى فمه فتقوم الساعة وتسقط اللقمة قبل أن يطعمها، ولا أشنع حالًا من هذه الصور المفزعات؛ لحصول الخسران لكل شيء، فالساعة قامت فجأة وهم في وقت متاعهم ورخائهم، فتحقق قول الله ﷻ: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ

(١) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص ١٠٦.

لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧]، ومن البلاغة والبيان إيثار (الفاء) العاطفة مقرونة بالنهي؛ لعدم القدرة على إتمام ما هم بشأنه أعنى وأهم (فلا يتبايعانه، فلا يطعمه، فلا يسقي، فلا يطعمها)، دون أدنى مهلة لإتمام ما هم فيه أقرب إلى الإتمام.

ومن محاسن النظم النبوي حسن الجناس في قوله: (فلا يسقي فِيهِ)، و(رفع أُكلته إلى فِيهِ) تام مماثل، وحسن السجع في (لا يطويانه، فلا يطعمه، فيه)، وحسن طباق الإيجاب في (لا يتبايعانه، ولا يطويانه).

ومن القيم التربوية أن التبصر في هذه العلامات يتيح للمرء فرصة المراجعة والتروي والتدبر لاختيار الطريق الأسلم ترغيبًا وترهيبًا، ومما يقوي طريق الترغيب في التوبة والترهيب من الفتن السياق العام للحديث، وما اشتمل عليه من معاني (الشدة، والعنف، والفزع، والإنذار، والتهويل، والتحذير، والترهيب)، وكلها مجتمعة في النظم النبوي؛ لتوقع في القلوب هزة واضطرابًا وزلزلة؛ لعل ركام الغفلة الذي ران على الفطرة أن يتطاير فيحصل التسليم والإذعان والاستجابة، وفي هذا النهج نعم عِظام؛ لتحقق العلم بالإنذار عما ينبغي أن يحذره الإنسان، من هنا، فالتخويف ركن أصيل من أركان النهج القويم في نشر ركائز التوحيد، فهو منهج هداية، وتوجيه، وإصلاح. ولنا أن نشير إلى جزء بسيط من تلك البلاغة في قول الحق تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢]، فمشهد البعث مشهد مزلزل عنيف رهيب، يبعث في النفس زلزلة ورجة عظيمة، ويجعلها شديدة الاضطراب لما يحصل من العذاب الشديد(١).

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٣/١٣.

الخاتمة

جاءت هذه الدراسة لبيان الأثر الدلالي من وراء بلاغة التخويف في جملة من أحاديث الفتن من صحيح البخاري، ومن خلال تتبع صور البلاغة وأساليب البيان وما يتعلق بهما من خصائص، ومزايا، وقيم تربوية؛ خلصت إلى جملة من النتائج، أبرزها:

- يُعدّ كتاب الفتن من أعظم أبواب الدين الحنيف، فهو علامة على صدق نبوة محمد ﷺ، وعلامة على صلاحية الدين لكافة الأزمان، فقد حدّث عليه الصلاة والسلام بأحداث وقعت، وأخبر بأخبار ستقع؛ ترهيبًا من خطر الافتتان، وترغيبًا في معالجة القلوب وتوجيهها نحو الصواب.
- يُعد التخويف انفعالًا فطريًّا، وأسلوبًا تربويًّا ذا ملامح جوهرية، يُساهم بدور فعال في تصحيح العقيدة، ومحاربة الفتن، وحماية الإنسان، ومن أبرز مقتضيات بلاغة التخويف في السياق النبوي: التكليف، والبيان، والندب إلى التخلي عما تُوجبه الفتن؛ رغبة في اجتثاث المعاصي، وقمع المضلات، ورهبة للابتعاد عن مهاوي الشر.
- إن للبلاغة النبوية نسقًا بديعيًّا خاصًّا يكمن في الصنعة المحكمة، والطبع القوي، والصقل البديع، واللفظ الموثق، والحكمة الناصعة،-كما ذكر الرافعي-، إلى جانب قوة السبك في التعبير عن المعاني، ومغزاها الأساسي: التعليم، والإرشاد.
- تميزت الأساليب البلاغية كالاستعارة، والكناية، والمجاز، والأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والقسم، بدور هام في إيضاح معاني الترهيب، والتحذير، والإنذار، فلم تكن أدواتًا تعبيرية فقط، بل أسهت بصورة أدق وأعمق في تحقيق الإقناع والتأثير؛ لبرهنة الأدلة الشرعية العقلية، وترسيخها في العقل بصورة قوية السبك، معبرة عن المعنى.
- يُعد أسلوب الحوار من أعظم الأساليب البلاغية وقعًا وإصابة؛ لما يحققه من إبلاغ، وإقناع، وتوجيه، وإرشاد؛ رغبة في أن يظل المسلم ثابتًا على دينه ثباتًا لا ينازعه ريب، ولا يخالطه شك.

- توظيف (التخويف، والترهيب، والإنذار) لغايات، ومقاصد، ومعانٍ تربوية عِظام، من أهمها:

- تبليغ التوحيد، وتغيير حال المعرضين، وتعديل السلوكيات الضالة؛ رجاء نجاتهم من الفتن.
- إظهار الرحمة والشفقة واللطف، فتلك وسائل ردع وإعلام، فالقلب بالتخويف يكون أنشط للإقبال على الطاعات، والهمم تكون أعلى لترقى في الإيمان، والعزم يكون أشد في محاربة الفتن.
- الأمر بـ(اعتزال الفرق الضالة، ولزوم نهج الجماعة).

- على المرء أن يدرك إدراكًا يقينيًّا أنه يعيش زمن فتن ومعاصٍ عظام، وما التبرج، والسفور، والاختلاط، وكثرة القتل، وانتشار الفرق الضالة، وتقارب الأزمان، والتطاول في البيان؛ إلا مؤشرات تحذيرية، وعلامات ترهيبية، غايتها: بث التيقظ، ونشر الاعتبار.

- ترقية الأذهان، وإصلاح القلوب؛ رغبة في النجاة، ورهبة من مضلات الفتن ومفسداتها، فلا تتحقق النجاة من العذاب إلا بتحقق الإذعان والعمل معًا، فكل فتنة هي امتحان وبلاء، يحصل بهما افتتان عظيم يصرف المرء عن آخرته.

فهرس الآيات القرآنية:

الآية	رقم الصفحة
﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن: ٤٦]	٩٣١
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [يونس: ٥٧]	٩٣٥
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢]	٩٣٧
﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]	٩٣٧
﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]	٩٣٩
﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١]	٩٤٦
﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣]	٩٤٧
﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾[هود: ١١٤]	٩٤٧
﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]	٩٦٤
﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ١٠٧]	٩٦٥
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١-٢]	٩٦٦

فهرس الأحاديث النبوية

«سبحان الله، ماذا أنزل الله من الخزائن...»	٩٣٥
«ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم...»	٩٤٠
«كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني...	٩٤٢
«فتنة الرجل في أهله وولده وجاره، تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...»	٩٤٨
«كلكم راع، وكل مسؤول عن رعيته»	٩٥٠
«لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب...»	٩٥١
«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تُضيء أعناق الإبل ببُصرى»	٩٥٥
«لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة»	٩٥٧
«لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة...»	٩٥٨

فهرس المصادر والمراجع

- الأدب النبوي، محمد عبد العزيز علي الشاذلي الخولي، (دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٤٢٣هـ).
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أبو بكر عبد الملك احمد القسطلاني القتيبي، (مصر، المطبعة الكري الأميرية، ط٧، ١٣٢٣هـ).
- إعجاز القرآن الكريم، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، (دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٩٧م).
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق عبد الرزاق الرافعي، (دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ط٨، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م).
- بلاغة الرسول في تقويم أخطأ الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين، ناصر راضي الزهري إبراهيم،(دار البصائر،ط١، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م).
- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة).
- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لأبي الفرج زين الدين عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي البغدادي الدمشقي، تحقيق: بشر محمد عيون، (دمشق، مكتبة المؤيد، دار البيان، ط٢، ١٤٠٩هـ–١٩٨٨م).
- التشويق في الحديث النبوي، طرقه وأغراضه، بسيوني عبد الفتاح فيود، (مكتبة وهبه، ط ١، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م).
- التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد الصباغ، (المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ–١٩٨٨م).
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م).
- الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كتبه، محمد لطفي الصباغ، (المكتب الإسلامي، ط٦، ١٤١١هـ–١٩٩٠م).

📖الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، عز الدين علي السيد، (١٣٢٩هـ ١٩٧٣م).
📖روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، (دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٥هـ).
📖سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة دراسة منهجية تأويلية ناقدة، محمود توفيق محمد سعد، (دار الكتب المصرية، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م).
📖شرح أحاديث من صحيح البخاري، دراسة في سمت الكلام الأول، محمد محمد أبو موسى، (مكتبة وهبة، مصر، القاهرة، ط٢، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م).
📖شرح الطبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ(الكاشف عن حقائق السنن)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (مكتبة نزار مصطفة الباز، مكة، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
📖شرح صحيح البخاري، لابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، (مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م).
📖شرح كتاب الفتن، أبو عبد الله محمد إسماعيل البخاري، الشارح: عبد الكريم عبد الله عبد الرحمن الخضير.
📖صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، (مركز البحوث، دار التأصيل).
📖عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، (دار إحياء التراث العربي_ بيروت).
📖فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (المكتبة السلفية).

📖الفوائد، لابن القيم الجوزية، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، (دار الحديث، القاهرة، ط٢، ١٤١٥هـ-٢٩٩٤م).
📖لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين بن منظور، (بيروت، لبنان، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م).
📖مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية، تحقيق: عبد العزيز ناصر الجليل، (القسطاوي، ط١، ١٤٣٩هـ).
📖مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسين نور الدين علي بن سلطان القاري، (دار الفكر، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م).
📖مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٢٠هـ).
📖مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م).
📖منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم، راجعه: عبد القادر الأرناؤوط وبشير محمد عيون، (المملكة العربية السعودية، الطائف، مكتبة المؤيد، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م).
📖نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، (دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م).